سلسلة دراسات وبحوث إسلامية

البصر والبصيرة

تأليف

الدكتور: أحمد جابر بدران

مدير مركز الدراسات الفقهية والاقتصادية

وخبير اقتصاد مركز صالح عبد الله كامل

جامعة الأزهر

فهرس البحث

٤ - المراقبة .

- تعريفها .

ثانياً : المقامات الروحية :

١ - الاستقامة :

- تعريفها .

- من أنواع الاستقامة .

٢ - الفتوة .

- تعريفها .

٣ - الفقر:

- أنواعه .

- رأي ابن تيمية فيمن يقــول إن الله ينظــر للفقراء

٤ - الصحبة :

- معني الصحبة .

- الطريق إلى الله .

المبحث الأول

المقصود بالبصر والبصيرة

أولاً : البصر :

بصر: ابن الأثير: في أسماء الله تعالى البصير، هو الذي يشاهد الأشياء كلها ظاهرها وخافيها بغير جارحة، والبصر عبارة في حقه عن الصفة التي ينكشف بها كمال نعوت المبصرات. الليث: البصر العين إلا أنه مذكر، وقيل: البصر حاسة الرؤية. ابن سيده: البصر حس العين والجمع أبصار.

بصر به بصراً وبصارة وبصارة، وأبصره وتبصره: نظر إليه هل يبصره. قال سيبويه: بصر صار مبصرا، وأبصره إذا أخبر بالذي وقعت عينه عليه، وحكاه اللحياني بصر به، بكسر الصاد،أي أبصره. وأبصرت الشيء: رأيته. وباصرة: نظر معه إلى شيء أيهما يبصره قبل صاحبه. وباصرة أيضا: أبصره، قال سكين بن نصرة البجلي :

فبت على رحلي وبات مكانه

أراقب ردفي تارة وأباصره

الجوهري: باصرته إذا أشرفت تنظر إليه من بعيد. وتباصر القوم: أبصر بعضهم بعضاً .

ورجل بصير مبصر: خلاف الضرير، فعيل بمعني فاعل، وجمعه بصراء .وحكي اللحياني : إنه لبصير بالعينين .([1])

([1]) لسان العرب مادة (بصر) ١/٢٩٠.

وورد البصر في القرآن على وجوه: بصر النظر والحجة: {فارجع البصر هل تري من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً}([1])، وبصر الأدب، والحرمة:{ما زاغ البصر وما طغى}([2])، وبصر للتعجيل والسرعة: {وما أمرنا إلا واحدة كلمح البصر}([3])، وبصر الحيرة والحسرة: {فإذا برق البصر} ([4])، وبصر للعمي في الكافر، والجهالة : {وجعل على بصره غشاوة}([5])، وبصر السؤال عن المعصية، الطاعة: {إن السمع والبصر والفؤاد}([6])، وبصر في عدم الفائدة والمنفعة: {فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم}([7])، وبصر للغي والغفلة: {أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم}([8])، وبصر للغطاء واللعنة:{فأصمهم وأعمى أبصارهم}([9])،وبصر للختم والخسارة: {ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم}([10]) وبصر للنظر والعبرة: {فاعتبروا يا أولي الأبصار}([11]) ([12]).

ثانيا البصيرة :

([1]) الآيتان ٣، ٤ سورة الملك .

([2]) الآية ١٧ سورة النجم .

([3]) الآية ٥٠ سورة القمر .

([4]) الآية ٧ سورة القيامة .

([5]) الآية ٢٣ سورة الجاثية .

([6]) الآية ٣٦ سورة الإسراء .

([7]) الآية ٢٦ سورة الأحقاف .

([8]) الآية ١٠٨ سورة النحل .

([9]) الآية ٢٣ سورة محمد .

([10]) الآية ١٠٣ سورة الأنعام .

([11]) الآية ٢ سورة الحشر .

([12]) بصائر ذوي التمييز ٢/٢٢٤.

والبصيرة: عقيدة القلب. قال الليث: البصيرة اسم لما اعتقد في القلب من الدين وتحقيق الأمر، وقيل: البصيرة الفطنة، تقول العرب: أعمى الله بصائره أي فطنه (عن ابن الأعرابي). وفي حديث ابن عباس: أن معاوية لما قال لهم: يا بني هاشم تصابون في أبصاركم، قالوا له:وأنتم يا بني أمية تصابون في بصائركم. وفعل ذلك على بصيرة أي على عمد. وعلى غير بصيرة أي على غير يقين. وفي حديث عثمان" ولتختلفن على بصيرة، أي على معرفة من أمركم ويقين. وفي حديث أم سلمة: أليس الطريق يجمع التاجر وابن السبيل والمستبصر والمجبور أي المستبين للشيء؛ يعني أنهم كانوا على بصيرة من ضلالتهم، أرادت أن تلك الرفقة قد جمعت الأخيار والأشرار .

وإنه ذو بصر وبصيرة في العبادة (عن اللحياني). وإنه لبصير بالأشياء أي عالم بها؛ عنه أيضاً. ويقال للفراسة الصادقة " فراسة ذات بصيرة. والبصيرة: العبرة؛ يقال أما لك بصيرة في هذا؟ أي عبرة تعتبر بها، وأنشد :

في الذاهبين الأولين

من القرون لنا بصائر

أي عبر([1]).

والبصيرة هي قوة القلب المدركة. ويقال لها: بصر أيضاً: قال الله تعالي: {ما زاغ البصر وما طغى}([1]) وجمع البصر أبصار، وجمع البصيرة بصائر .

([1]) لسان العرب ١/٢٩١.

ولا يكاد يقال للجارحة الناظرة بصيرة، إنما هـي بـصيرة؛ نحو {كلمح بالبصر}([2]) ويقال

للقوة التي فيها أيضاً: بصر. ويقال منه: أبـصرت، ومـن الأول: أبصرته، وبصرت به. وقلما يقال في الحاسة إذا لم تـضامه رؤية القلب: بصرت. ومنه (أدعو إلى الله على بصير}([3]) أي على معرفة وتحقق .وقوله: {بل الإنسان على نفسه بصيرة}([4]) أي عليـه من جوارحه بصيرة، فتبصره وتشهد عليه يوم القيامة.

وقال الأخفش: جعله في نفسه بصيرة؛ كما يقال: فلان جود وكرم. فهاهنا أيضا كذلك؛ لأن الإنسان ببديهة عقلـه يعلـم أن مـا يقربه إلى الله هو السعادة، وما يبعده عن طاعته الـشقاوة.وتأنيـث البصير لأن المراد بالإنسان هنا جوارحه. وقيل: الهـاء للمبالغـة؛ كعلامة، وراوية. والضرير يقال له: البصير، علي سبيل العكـس. والصواب أنه قيل له ذلك لما له من قوة بصيرة القلب .

وقوله: {لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبـصار}([5]) حملـه كثير من المتكلمين على الجارحة. وقيل: في ذلك إشارة إلى ذلـك، وإلى الأذهان، والإفهام. والباصرة: الجارحة الناظرة.

{وجعلنا آية النهار مبصرة}([6]) قيـل معنـاه: صـار أهلـه بصراء؛ نحو رجل مخبث، ومضعف أي أهله خبثاء وضعفاء .{ولقد

([1]) الآية ١٧ سورة النجم .

([2]) الآية ٥٠ سورة القمر .

([3]) الآية ١٠٨ سورة يوسف .

([4]) الآية ١٤ سورة القيامة .

([5]) الآية ١٠٣ سورة الأنعام.

([6]) الآية ١٢ سورة الإسراء .

آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس}([1]): أي جعلناها عبرة لهم. وقوله: {وأبصر فسوف يبصرون}([2]) أي انتظر حتى ترى ويروا. وقوله {وكانوا مستبصرين}([3]) أي طالبين للبصيرة. ويصح (أن يستعار) الاستبصار للإبصار؛ نحو استعارة الاستجابة للإجابة. وقوله: {تبصرة وذكرى}([4]) أي تبصيرا وتبييناً. يقال: بصرته تبصيراً، وتبصرة؛ نحو ذكرته تذكيراً وتذكرة ([5]).

ولنذكر هنا ما ذكره ابن عطاء الله السكندري في كتابه"التنوير في إسقاط التدبير" تحت عنوان (من غض بصره فتح الله بصيرته) يقول:"عليك أيها المؤمن بغض طرفك من حين خروجك إلى سبيلك إلى حين ترجع، ولتذكر قول الله تعالى{قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم}([6]). وليعلم أن بصره نعمة من الله عليه فلا يكن لنعم الله كفورا، وأمانة من عند الله فلا يكن لها خائنا، وليذكر قوله تعالى{يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور}([7])، وقوله تعالى {ألم يعلم بأن الله يرى}([8]).

([1]) الآية ٤٣ سورة القصص .

([2]) الآية ١٧٩ سورة الصافات .

([3]) الآية ٣٨ سورة العنكبوت .

([4]) الآية ٨ سورة ق .

([5]) بصائر ذوي التمييز. ٢٢٣/٢ .

([6]) آية رقم (٣٠) من سورة النور.

([7]) آية رقم(١٩) من سورة غافر.

([8]) آية رقم(١٤)من سورة العلق.

وإذا أردت أن ترى فاعلم أنه يرى، وليعلم أنه إذا غض بصره فتح الله بصيرته جزاء وفاقا، فمن ضيق على نفسه في دائرة الشهادة وسع الله عليه في دائرة الغيب.

وقال بعضهم :"ما غض أحد بصره عن محارم الله إلا أوجده نورا في قلبه يجد حلاوة ذلك "([1]).

([1]) التنوير في إسقاط التدبير ص٢١٦.

المبحث الثاني

الفرق بين معرفة العوام والخواص

وأخص الخواص

١ – في مقام معرفة العوام :

وهى معرفة عقلية. وقد تساوى فيه المسلم، والكافر، واليهود، والنصارى، والمجوس، والملاحدة، والفلاسفة، والطبائعية، والدهرية. فإن لهم شركة في العقل، وقد اتفق كلهم على وجود إله بلا خلف، وإنما وقع الخلاف فيما بينهم في صفات الألوهية، لا في الذات. وهذا الخلاف أيضاً واقع فيما بين المسلمين. ولكل طائفة منهم مذهب في إثبات الصفات ونفيها. فلا نشرع في شرحة لئلا يخرجنا من حد الإيجاز. والذي يدل على اتفاق المؤمن والكافر في إثبات ذات الله تعالى قوله تعالى {ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله}([١]). ولقد قال الذين يعبدون الأصنام أيضا{ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى}([٢]) .

وأعلم. أن هذا النوع من المعرفة أعني المعرفة العقلية ليست بمنجية من النار، إلا أن يكون الاستدلال العقلي مؤيدا بنور الإيمان، ومؤكدا بالأعمال الصالحة .

والمعرفة العقلية ما يكون ثابتا بالدليل الواضح على وجود الصانع الباري، ووحدانيته في الإلهية جل جلاله .

([١]) آية رقم (٢٥) من سورة لقمان مكية .

([٢]) آية (٣) من سورة الزمر مكية .

ويسرد أبو بكر عبد الله بن شاهور الرازي عدداً من الأدلة على وجود الله. يقول الرازي:" إن أولى الاستدلالات على وجود الصانع ووحدانيته بالحركة، وأنها أظهر الأشياء دلالة عليه. وهو أن أحد الأصول المبنية للعقل التي قال بها من اتبع الحق: إنه لا يحدث شيء من الأشياء من غير علة. ولا يتحرك متحرك إلا عن محرك له سواه. وذلك أن لكل جسم طبيعي حركة تخصه، وذلك أن الجسم ما كان منه موجودا، وما كان منه متكونا. وإنما قوامه بصورته الخاصة التي هي به. وصورته الخاصة هي المقومة لذاته هي طبيعته، وطبيعة مبدأ الحركة الخاصة به، وحركته الخاصة به هي التي تحركه إلى تمامه. وتمام كل شيء. هو ما لائمه ووافقه، وكذلك كل متحرك يتحرك إلى تمامه وإلى ما يوافقه. ولهذا قيل: إن كل متحرك يتحرك إلى تمامه فهو بالشوق. والذي يشتاق فهو معلول مما يشتاق إليه. والعلة تتقدم على المعلول بالطبع. فلذلك صار الاستدلال بالحركة أظهر الأشياء. أولاها بالدلالة علي الصانع عز وجل .

ونعود فنقول: إن الحركة المطابقة للأجسام الطبيعيــة هــي ست: حركة الكون، والفساد، و النمــو، والنقــصان، والاســتحالة، والنقلة. وذلك أن للحركة نقلا، وتبدلاً ما. والتبدل في جسم إذا كــان طبيعياً لا يخلو من أن يكون عرضا. إما بمكانه، وإما بكيفيته، وإما بجوهره. وأما التبدل بالمكان فإما أن يكون بكله أو بجزئه. فإن كان بكله كانت حركته مستقيمة ،وإن تبدل بجزئه كانت حركته مستديرة ... ونفرض للمستدير أن يتحرك أيضا إما من محيطه إلى مركــزه

،وإما من مركزه إلى محيطه. فإن تحرك من مركزه إلـــى محيطـــه كانت حركته نمواً وإن تحرك من محيطه إلى مركزه كانت حركتـــه نقصانا. وأما المتبدل بالكيفية فليس يخلوا. إما أن يحفظ جـــوهره أو لا يحفظ. فإن حفظ جوهره كانت حركته استحالة، وإن لـــم يحفـــظ جوهره كانت حركته فساد. ا وهذه الحركة الأخيرة إذا نظر إليهـــا بقى إلى جوهره الثاني. أعني ما استحال إليه سميت كونا. ثم نقول: إن لكل متحرك بحركة من أنواع الحركـــات محركـــا ســـواه. وإن محرك جميع الأشياء غير متحرك. وإنه علة تمامها، وعلة حركتها. وذلك لأن كل متحرك تحرك بغير محرك. فذلك المتحرك لا يخلـــو من أن يكون حيا، أو غير حي. فإن كان حيـــا. وادعـــى مـــدع أن حركته من ذاته، لا من غيره، قلنا له : لو كان كذلك لكنا إذا نزعنا جزءا من أجزائه الشريفة بقيت حركـــة الحـــي. وحركـــة الجـــزء المنـــزوع جميعا. وليس الأمر كذلك بل هو بالضد .

فليس إذا ذات جوهر الحي هو المحرك بل غير. وإن كـــان المحرك غير حي. فهو إما نبات، وإما جماد. فإن كان نباتا؛ فيلزم في حركته ما يلزم من حركة الحي أيضا، وإن كان جمادا. فإنـــه: إما أن يكون أحد العناصر الأربعة، أو واحدا من مركباتهـــا. فـــإن كان أحد العناصر. لزم فيه إن كانت حركته من ذاتـــه ألا يقـــف إذا بلغ موضعه الخاص به إذا انتهى إليه . و.إن وقف فيه لزم أن يقف في غيره كما يقف الحيوان حيث يريد. وليس الأمر علـــى ذلـــك فليست حركة العناصر من ذاتها. فهي إذا من غيرها .

وكذلك حال المركبات من العناصر. فإن قال قائل: إن حركة العناصر إنما هي لطلبها المكان الذي يخصه، لأنه هو المطلـوب المتشوق إليه، وكل مطلوب متشوق إليه فهو المتحرك لطالبه. فمـن هذه الجهة أيضا، محرك العناصر غيرها ويمكن أن نبين على هذه الجهة أن الحيوان إنما يتحرك بالشهوة، أو بالكراهة .. أما بالـشهوة فليدنو من المشتهي شوقا إليه. وأما بالكراهة فليبعد مـن المكـروه هربا منه. فمحركه إذا غيره. ثم ننظر في هذا المحرك أيضا، فـإن لزمه نوع من أنواع الحركة لزم فيه ما لزم فـي المتحـرك الأول، ولا يزال كذلك إلى أن ينتهي إلى محرك لا يتحرك بنوع من أنواع الحركة. وهو مبدأ أو علة. لوجود جميع الأشياء. وبـه قـوام كـل جوهر ووجود كل موجود. وإذا تبين ذلك، فقد علم أن الوجود فـي جميع الأشياء بالعرض. وهو في المبدع الأول بالذات .

وقد اجتمعت العلماء والحكماء، على أن كل ما يوجـد فـي شيء ما بالعرض فهو في شيء آخر بالذات. وذلك أن العرض في الشيء أثر، والأثر حركة، ولابد له من مؤثر فقـط. فـالوجود إذا ذاتي المبدع الأول، الواحد الصمد، جل جلاله. لأنه لم يقبلـه مـن غيره، ومن قبله جميع الأشياء التـي دونـه، وبـه قـوام صـور الموجودات. وإذا كان الوجود فيه كما قلنا ذاتيا فلا يجوز أن يتوهم معدوما. فهو واجب الوجود. وما كان واجب الوجـود، فهـو دائـم الوجود. وما كان دائم الوجود، فهو أزلي. وإذا كـان كـذلك. فـلا يجوز أن يتوهم شيء من أنواع الموجودات لم يكن وجـوده منـه. لأنه، عز وجل. الذي فاض به، وأعطاه ما دونـه. فهـو إذا مـن

الوجود في أعلى رتبة. ووجودات سائر الأشياء كلها فائضة عنه ومستفادة منه .

وبيان أنه تعالى واحد .. أنه لو كان الفاعلون أكثر من واحد للزم أن يكونوا مركبين، وذلك أنهم اشتركوا في أنهم فاعلون، واختلفوا بالذوات. لابد أن يكون الشيء الذي به خالف أحدهم الآخر غير ما وافقه به. فيجب من ذلك أن يكون كل واحد منهم مركبا من جوهر، وفصل. والتركيب حركة. لأنه أثر ولابد له من مؤثر على ما تبين من قبل. فيجب من ذلك أن يكون للفاعل فاعل. وهذا يمر بلا نهاية. فبالضرورة يرتقي إلى فاعل واحد. يفعل بعض أفعاله بذاته، وبعضها بتوسط أشياء من مفعولاته .

٢ - في مقام المعرفة النظرية وهي معرفة الخواص :

وهم أهل البصائر والرؤية، من أرباب القلوب السليمة الزكية . فإنهم ينظرون من روزنة القلوب، في ملكوت الأشياء. كما قال الله تعالى {أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض}([1]) فيرون الآيات المودعة في كل شيء. فتدل الآيات على معرفة الله، ووحدانيته. كما قيل :

وفي كل شيء له آية

تدل على أنه الواحد

وإن القلب إذا سلم عن الآفات، وأعرض عن الدنيا، وأقبل إلى المولى، وصقل بمصقل الذكر عنه، كدورات صفات البشرية. تنور بنور الذكر ؛ وهو كلمة: لا إله إلا الله. و هي مركبة من نفي،

([1]) آية رقم ١٨٥ من سورة (الأعراف) مكية.

وإثبات. فبنفيها تنفي شواغل القلب، وظلماتها .. وبالإثبات تثبت شواهد أنوار المذكور. فينكشف الغطاء عن بصر بصيرة القلب، فيري بها جمال آيات الحق تعالى .. كما قال الله تعالى: {ما كذب الفؤاد ما رأى}([1]) .

ومن هنا قال من قال: ما نظرت في شيء إلا ورأيت الله فيه .. فمعرفة العوام بدلائل المعقول، ومعرفة الخواص بشواهد المدلول. فأين من يعرف الحق تعالى بإراءة العقل ممن يعرفه الحق بإراءة آية في مرآة الآفاق، وقبله. كما قال الله تعالي: {سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق}([2]).

٣- في مقام المعرفة الشهودية وهي معرفة أخص الخواص :

وهم أصحاب مشاهدات الجمال، وأرباب مكاشفات الجلال الذين خصهم الله بهذه السعادة، واصطفاهم لهذه السيادة. بلا هم في كتم العدم محبوسون من عهد القدم. وخياط القضاء بخياطة القدر. وخيط المشيئة على حانوت الأزل، بيد العناية، وقوة القدرة، وصناعة الحكمة. كان يخيط خلعة المعرفة على قدهم ؛ من ثوب قد نسج من سدي يحبهم ولحمة يحبونه. كما قال الله تعالى: (فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف). فكان وجود العالم بما فيه في الخلفية تبعا لهذه المعرفة. فلا يدري أهي درة في صدف المحبة، أو المحبة درة صدف المعرفة .. فإن المحبة بغير المعرفة لا يمكن

([1]) آية (١١) من سورة (النجم) مكية.

([2]) آية ٥٣ ممن سورة (فصلت) مكية .

وصولها. وإن المعرفة بغير المحبة لا يمكن حصولها. فلما أمعنت النظر، و أتقنت الفكر كوشف لي أن المعرفة صدف درة المحبة. لأن المحبة من صفات الله تعالي. والمعرفة من صفة العبد. ولهذا سبقت المحبة على المعرفة حيث قال : (فأحببت أن أعرف). فقد أضاف المحبة إلى نفسه، ونسب المعرفة إلى غيره.

والمحبة قديمة، والمعرفة حادثة .و القديمة أولى بالدرية، والحادث أحرى بالصدفية. وقد كشف القناع عن وجه هذا المعني النبيﷺ .

" إن الله خلق آدم فتجلي فيه " وحيث قال : إن الله خلق آدم علي صورته. أي علي صفته. فتحقق من هذا أن العالم صدف ودرته "آدم" عليه السلام، و "آدم" صدف ودرته "محمد"ﷺ وشخص "محمد" صدف، وقلبه درته. وقلبه صدف، والمعرفة درته. والمعرفة صدف، والمحبة درته. ولهذا سمي حبيب الله. واختص بهذا الاسم دون سائر الخليقة. من الملائكة المقربين، والأنبياء والمرسلين. وهو المشار إليه بكناية المحبة، والمعرفة في قوله تعالى "فأحببت أن أعرف" والناس تبع له في نيل هذين المقامين. ومن هنا كان النبي ﷺ يقول: " أنا سيد ولد آدم، ولا فخر" .

ويقول : "آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة، ولا فخر ". ولواؤه هو المقام المحمود. الذي خصه الله تعالى به من كمال المعرفة ،و المحبة. وما بلغ إليه من سواه. وهم تحت مقامه .

ثم أعلم. أن لكل نبي وولي تمتعا من مقام هذه المعرفة، علي قدر شهودهم. الذي قدر الله لهم. واستعدادهم في قبول الفيض

الإلهي، بلا واسطة حجاب. ولا يبلغ السائر الصادق إلى هذه المرتبة السنية .إلا بالعبور علي مقامات النفس، والقلب، والسر، والروح. والخفي مؤيدا بالتأييد الإلهي.

ثم السير يتبدل بالطير. فالسير يكون في مقامات البشرية السفلية بالجذبة فالجذبة تبعده عن أنانيته، وتقربه إلى هويته. إلى أن تورث الجذبة المشاهدة. فالمشاهدة أحضرته معه، وغيبته عنه. إلى أن تثمر المشاهدة المعاينة فالمعاينة تجمعه به، وتفرقه عنه. إلى أن ظهر بالعيان. فالعيان يستحقه، والعين يمحقه. ثم يحق الحق ويزهق الباطل. فيكاشف بأنوار غيب الغيب .. فيطالع أسرار ربوبية الملك والملكوت. ويله حيران في تيه العظمة والجبروت. حتى يتجلى له شمس الربوبية عن سماء العبودية. فأشرقت أرض البشرية بنور ربها وترقي المقام إلى تلألؤ أنوار الألوهية المستفادة من سر الله، نور السموات والأرض. ثم هبت نفحات ألطاف الربوبية، وانفتح في عين الشمس باب الهوية، وانغمس فيه المنغمس ثم لا تسأل .

قد كان ما كان ستراً لا أبوح به

فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

فاستضاءت الآفاق الجسدانية بضوء الشريعة ،وظهرت المشكاة النفسانية بلوامع الطريقة، وتنورت الزجاجة القلبية بأنوار حقيقة الروحانية، وأشرق المصباح الروحاني بنار نور الإلهية وبدت شجرة الوحدانية. ونودي موسى السر من الشجرة : {أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين}([1]) فانمحت الجهات .. وتلاشت

([1]) آية رقم (٣٠) من سورة القصص مكية .

الصور، وانطمست الأبعاض ،وانعدمت الأجــزاء وســطت عــزة الوحدانية، وتجلي نور الصمدانية الربانية. فدكدك جبل الإنــسانية، وخر موسى الروحانية صعقا. فاحترقت الغيريــة بنــار الغيرتيــة. وارتفعت الشركة، وبقيت الوحدة متعززة برداء الكبريــاء والعــزة، متزرة بإزار العلاء والعظمة. وحده لا شريك له {كل شيء هالــك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون}([1]). هذا أوان {ومــا رميــت إذ رميت ولكن الله رمى}([2]) .هذا وقت {وما ينطق عن الهوى}([3]). ألا وهو سر. " كنت كنزا مخفيا". فلما كشف الغطاء ،وذهــب الخفــاء، ورفع الخباء وطويت الأرض والسماء. ظهر الخفاء، ودام اللقــاء، فــ{ما كذب الفؤاد ما رأى} ما روي. فرعي في رياض المعرفــة، وشرب من حياض المحبة، وسقي بكأس الجمال شراب الجلال مــن بحر الوصال. فاستراح من ضروب القيل والقال، وكثرة الــسؤال، وتغير الأحوال. إذ تجافي عن المحاط المطلق، المحيط به. والغيــب المحاط المحيط به غيب المحيط المطلق. فتحقق له حقيقة {ألا إنــه بكل شيء محيط}([4]).

كما أقول :

أبان الحق ليس به خفاء   وباح السر وانكشف الغطاء

فنفسي زايلت والروح بادت فلم يبق التكدر والصفاء

تجلت سطوة الجبروت حتى فنينا ثم قد فني الفناء

([1]) آية رقم (٨٨) من سورة (القصص) مكية .

([2]) آية رقم (١٧) من سورة (الأنفال) مدنية .

([3]) آية رقم (٣) من سورة (النجم) مكية .

([4]) آية رقم (٥٤) من سورة (فصلت) مكية .

بقاء الحق أفنانا وأفني بفاء فنائنا ذاك البقاء

فلهذا مقام المعرفة الشهودية الحقيقية، التي يعرف فيه الرب بالرب.

كما قالﷺ "عرفت ربي بربي ولولا فضل ربي ما عرفت ربي" .

المبحث الثالث

مفهوم الكرامة والفراسة

أولاً : الكرامة :

الكرامة هي الآية أو الأمر الخارق للعادة الذي يكرم الله به أولياءه الصالحين من غير الأنبياء .

وصفات الكمال ترجع إلى ثلاثة : العلم، والقدرة، والغنى، وهي لا توجد على وجه الكمال إلا لله. فقد أحاط بكل شيء علماً، وهو على كل شيء قدير ،وهو غني عن العالمين .

وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبرأ منها : {قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن اتبع إلا ما يوحي إلي}([1]).

وذلك لأنهم يطالبونه تارة بعلم الغيب: {يسألونك عن الساعة أيان مرساها}([2]) .

وتارة بالتأثير: {وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً* أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا* أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلا}([3]) .

([1]) الأنعام: ٥٠.

([2]) النازعات:٤٢.

([3]) الإسراء: ٩٠-٩٢.

وتارة يعيبون عليه الحاجة البشرية: {وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكــون معــه نذيرا* أو يلقي إليه كــنزا أو تكون له جنة يأكل منها}([٤]) .

وينال العبد من هذه الصفات الثلاثة بقدر ما يعطيه الله :

فيعلم ما علمه الله

ويقدر علي ما أقدره عليه .

ويستغني عما أغناه عنه من الأمور المخالفة للعادة .

فما كان من الخوارق من باب العلم : فتارة بأن يسمع العبــد مالا يسمعه غيره ،و تارة بأن يري ما لا يراه غيره يقظة أو مناماً، وتارة بأن يعلم ما لم يعلمه غيره وحيــاً وإلهامــاً، أو إنــزال علــم ضــروري، أو فراســة صــادقة، ويــسمي كــشفاً، ومــشاهدات، ومكاشفات، ومخاطبات .

فالسماع : مخاطبات، والرؤية : مشاهدات، والعلم : مكاشفة.

ويسمي ذلك كله : كشفاً ومكاشفة .

وما كان من باب القدرة فهو التأثير، مثل تذليل النفوس لـــه، ومحبتها إياه .

وقد يكون التأثير في الكونيات : إما في نفسه، كمشيه علـــي الماء، وطيرانه في الهواء، وجلوسه في النار .

وإما في غيره بإصحاح، وإهلاك، وإغناء، وإفقار .

وذلك أن للقلوب من التأثير أعظم مما للأبدان، لكن إذا كانت صالحة، كان تأثيرها صالحاً، وإن كانت فاسدة، كان تأثيرها فاسداً .

([٤]) الفرقان: ٧-٨.

حكم الكرامة :

إنها جائزة عقلا، وواقعة فعلا. وهناك أدلة على وقوعها في الكتاب والسنة تدل على إمكان وقوعها وهو رأى أهل السنة وحدوثها وهى:

١ - من القرآن الكريم :

{ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب}([٥])، {يا أيها الذين ءامنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا}([٦])

{كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أني لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب}([٧]).

{وهزي إليك بجذع النخلة تسقط عليك رطباً جنيا}([٨]).

{قال الذي عنده علم من الكتاب أنا ءاتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما راءه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي}([٩]).

١- ومن السنة المطهرة: قصة الثلاثة الذين آواهم الغار، فتوسلوا إلى الله بصالح أعمالهم، ففرج الله عنه، وقصة جريج العابد، فقد أنطق الله له الغلام في المهد .

([٥]) الطلاق:٢-٣

([٦]) الأنفال: ٢٩

([٧]) آل عمران:٣٧

([٨]) مريم: ٢٥

([٩]) النمل: ٤٠

ولا يلتبس الولي بالنبي، لأن الــولي لا يــدعي النبــوة، ولا يتحدي الناس بالأمر الخارق الذي ظهر على يديــه، ولــو ادعــى النبوة، لصار متنبئاً كذباً. يفضحه الله .

كما أن إنكار الكرامات يعتبر إنكاراً للمحسوسات الموجــودة في كل عصر([١٠]).

٢ – الكلام في إثبات الكرامات :

اعلم أن ظهور الكرامات جائز على الولي في حــال صــحة التكليف عليه، ويتفق على هذا فريقان من أهل الــسنة والجماعــة، وهو ليس بمستحيل في العقل أيضاً، لأن هذا النوع في مقــدور الله تعالى وتقدس، وإظهاره لا يتنافى مع أصل مــن أصــول الــشرع والارادة، وجنسه غير منقطع عن الأوهام.

والكرامة علامة صدق الولي، ولا يجــوز ظهورهــا علــى الكاذب، إلا كعلامة على كذب دعواه، وهي فعل ناقض للعادة في حال بقاء التكليف. ومن يعرف بتعريف الحق الصدق من الكــذب، على وجه الاستدلال، فهو أيضاً ولي .

وتقول طائفة من أهل السنة إن الكرامة صحيحة، لكن لا إلى حد الإعجاز، مثل إستجابة الدعوة، وحصول المراد، وما شابه هــذا مما لا ينقض العادة .

ونقول : أي فساد تتصورونه من ظهور فعل ناقض للعــادة علي يد ولي صادق في زمان التكليف ؟ فإذا قالوا: إن هــذا النــوع ليس في مقدور الله تعالي، فهذه ضــلالة. وإذا قــالوا إن هــذاالنوع

([١٠]) عقيدتنا، د/ محمد الجوهري، ص ١٦٨-١٧١.

مقدور، ولكن إظهاره على يد الولي إبطال للنبوة ونفي لتخصيصها، فهذا محال أيـضاً، لأن الـولي مخـصوص بالكرامـات، والنبـي مخصوص بالمعجزات. "والمعجزة لم تكن معجزة لعينها، وإنما هي معجزة لحصولها، ومن شـرطها اقتـران دعـوي النبـوة بهـا، فالمعجزات تختص بالأنبياء، والكرامات تكون للأوليـاء ". وحـين يكون الولي وليا والنبي نبيا لا تكون بينهما أية شبهة حتى يلزم هذا الاحتراز، لأن شرف الأنبياء ومراتبهم عليهم السلام بعلـو الرتبـة وصفاء العصمة، لا بمجرد المعجزة أو الكرامة، أو إظهـار فعـل ناقض للعادة علي أيديهم. والكل متساو في أصل الإعجاز، أما فـي الدرجات والتفضيل فلأحدهما على الآخر فضل. ومـا دام يجـوز لتسوية الأفعال الناقضة للعادة أن يفضل أحدهم الآخر، فلم لا يجوز أن يكون فعل ناقض للعادة كرامة للولي، ويكون الأنبيـاء أفـضل منهم ؟ وما دام الفعل الناقض للعادة هناك لا يصير علـة تفـضيل وتخصيص لهم علي بعضهم البعض، فهنا أيـضاً لا يـصير فعـل ناقض للعادة علة لتخصيص الولي على النبي – يعنـي أن هـذا لا يصير معهم – ومن يتبين له هذا الدليل من العقـلاء ترتفـع هـذه الشبهة من قلبه .

وإذا تصور أحد أنه إذا كان للولي كرامة ناقضة للعادة فإنـه يدعي النبوة، فهذا محال، لأن شرط الولاية صدق القول، والادعـاء بخلاف المعني كذب، والكاذب لا يكون وليـا. وإذا أدعـى الـولي النبوة فلذلك قدح في المعجزة، وكفر محض. والكرامة لا تكـون إلا للمؤمن المطيع، والكذب معصية لا طاعة. وما دام الأمر هكذا فـإن

كرامة الولي تكون موافقة لإثبات حجة النبي، ولا تقع أية شبهة بين الكرامات والمعجزات، لأن النبي يثبت نبوتـه بإثبـات المعجـزة، والولي أيضا يثبت ولايته بالكرامة، فهذا الصادق في ولايته يقـول ما يقوله الصادق في نبوته، وكرامته عين إعجاز النبي .

ورؤية كرامة الولي تكون للمؤمن زيادة يقين علـي صـدق النبي، لا شبهة فيه، لأنهما ليسا متضادين في الدعوى حتـى ينفـي أحدهما الآخر، بل أن دعوى أحدهما عين برهان دعـوى الآخـر. وكما أنه في الشريعة حين يتفق جماعة من الورثة في الدعوى، إذا ثبتت حجة أحدهم فإن حجته تثبت حجة الآخـرين بحكـم اتفـاقهم واستوائهم في الدرجة والدعوى، وإذا كانت الـدعوى متـضادة لا تكون حجة أحدهم حجة للآخر، فإنه إذا ادعي النبي صـحة النبـوة بدلالة المعجزة وصدقه الولي في دعواه، فإن إثبات الشبهة في هـذا المجل يكون محالاً([11]) .

مفهوم الكرامة عند أبي بكر عبد الله الرازي :

نوعا الكرامة

١- كرامة بين العبد والرب. من المواهب التي لا بسعة ملك مقرب، ولا نبي مرسل. وهي الكرامة الحقيقية مما لا عـين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وهذه مما لا يطلع عليـه أحد إلا الله تعالى ،والعبد بين المحبين سر ليس يغشيه .. وهذه مما يتعلق بالوصول والوصال .

([11]) كشف المحجوب ٢/٤٥٣، ٤٥٤.

٢- وكرامة يطلع عليها الخلق، وهي من جنس خرق العادات المشبهة بالمعجزة.

الفرق بين المعجزة والكرامة

فمنها. قالوا : إن المعجزة تقع عند قصد النبي وتحديه. والكرامة قد تقع من غير قصد الولي .

وقيل : قد يجوز أن تقع الكرامة أيضا. بقصد الولي، وإنما الفرق بينهما أن المعجزة تقع مع التحدي، والكرامة لا يتحدى بها الولي .

وقيل : بل يجوز أن تقع الكرامة أيضا للولي بالتحدي .

إن المعجزة تكون عقيب دعوى النبيﷺ بالنبوة. ولا تكون الكرامة عقيب دعوى الولي بالنبوة. لأنه لو ادعي أنه نبي لكان كاذبا في دعواه والكاذب لا يكون وليا لله. فلا يظهر على يده ما يظهر علي أيدي الأنبياء .

وهذا فرق ظاهر.

وقال المشايخ: إن المعجزات علامات صدق حيث وجدت فلا تظهر على أيدي الأولياء عند دعواهم النبوة. لأنها لو وجدت عند ذلك لانقلب الصدق كذبا، وهو محال .

وقال بعض المشايخ: زيادة المعجزات تزيد قلوب الأنبياء تثبتا. وزيادة الكرامات تزيد قلوب الأولياء وجلا وخيفة حذار من أن يكون استدراجاً .

وقال بعضهم: الأنبياء يحتجون بالمعجزات علي المشركين.

والأولياء يحتجون بالكرامات على نفوسهم لتـصلح، وعلـى قلوبهم لتطمئن.

رأي المعتزلة

وأكثر المعتزلة : أنكروا كرامات الأولياء لعدمها فيما بيـنهم ،وذلك لأجل بدعهم. وإنما أنكرت المعتزلة الكرامة بنـاء علـى أن الفعل، إنما يكون معجزة بخرق العادة فحسب ولـيس كـذلك، بـل ينضم إلى خرق العادة التحدي بالنبوة، والإقتران بدعوى النبي. ألا ترى آيات الساعة خارقة للعادة، وليس معجزات .

الدليل على إثبات الكرامات للأولياء :

– فهو أن تلك أفعال خارقة للعادة مقدورة لله تعالى فإذا لـم تؤد إلى سد باب النبوة، وجاز ظهورها علي أيدي الأولياء.

– وقد قيل : إن الكرامات الظاهرة تغذية تربي بها أطفـال الطريقة. وأما من حيث السمع. فقصة "مريم" عليها السلام في قوله تعالى :{ وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبـاً جنيـا}([١٢]) وقوله :{كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يـا مريم أني لك هذا}([١٣]) ، وقوله تعالى : {قال الذي عنده علـم مـن الكتاب أنا آتيك به}([١٤]).

حكاية عن "آصف بن برخيا" وقصة أصحاب الكهف .ومـا جري عليهم من الحالات .

([١٢]) آية رقم (٢٥) من سورة مريم مكية .

([١٣]) آية رقم (٣٧) من سورة آل عمران مدنية .

([١٤]) آية رقم ٤٠ سورة النمل مكية .

هؤلاء ليسوا بأنبياء. وقـد جـري علـيهم أمـور خارقـة للعادات([١٥]).

رأى الإمام ابن تيمية فى مسألة الكرامات

يبسط الإمام ابن تيمية صفحات متعددة فى كتابـه الفتـاى يتحدث فيه عن الكرامة وما يرتبط بها. يقول ابن تيمية عن كيفيـة حصول الكرامة:"وكرامات أولياء الله إنما حـصلت ببركـة اتبـاع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهى فى الحقيقة تـدخل معجـزات الرسول صلى الله عليه وسلم: مثل انشقاق القمر، وتـسبيح الحـصا فى كفه، وإتيان الشجر إليه، وحنين الجـذع إليـه، وإخبـاره ليلـة المعراج بصفة بيت المقدس، وإخباره بما كان وما يكـون، وإتيانـه بالكتاب العزيز، وتكثير الطعام والشارب مرات كثيرة، كمـا أشـبع فى الخندق العسكر من قدر طعام وهو لم ينقص فى حديث أم سلمة المشهور، وأروى العسكر فى غزوة خبير من مـزاده مـاء ولـم تنقص، وملأ أوعية العسكر عام تبوك من طعام قليل ولـم يـنقص وهم نحو ثلاثين ألفاً، ونبع الماء من بين أصابعه مرات متعددة حتى كفى الناس الذين كانوا معه، كما كانوا فى غزوة الحديبية نحو ألف وأربعمائة أو خمسمائة، ورده لعين أبى قتادة حين سالت على خـده فرجعت أحسن عينيه، ولما أرسل محمد بن مـسلمة لقتـل كعـب الأشراف فوقع وانكسرت رجله منها قطعتين فأكلوا منها جميعهم ثم فضلة، ودين عبد الله أبى جابر لليهودى وهو ثلاثون وشـقا. قـال جابر : فأمر صاحب الدين أن يأخذ التمر جميعه بالذى كان له فلـم

([١٥]) منارات السائرين ومقامات الطائرين تحقيق سعيد عبد الفتاح ص ١٤٤ – ١٤٨.

يقبل فمشى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال لجابر جد له فوفاه الثلاثين وسقا وفضل سبعة عشر وسقا. ومثل هـذا كثيـر د جمعت نحو ألف معجزة.

كرامات الصحابة والتابعين

وكرامات الصحابة والتابعين بعدهم وسائر الصالحين كثيرة جداً، مثل ما كان "أسيد بن حضير" يقرأ سورة الكهف فنزل من السماء مثل الظلة فيها أمثال السرج وهى الملائكة نزلت لقراءته" وكانت الملائكة تسلم على عمران بن حصين. وكان سلمان وأبو الدرداء يأكلان فى صحفة فسبحت أو سبح ما فيها. وعباد بن بشر وأسيد بن حضير خرجا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ليلة مظلمة فأضاء لهما نور مثل طرف السوط فلما افترقا الضوء معهما. رواه البخارى وغيره.

وقصة "الصديق" فى الصحيحين لما ذهب بثلاثة أضياف معه إلى بيته، وجعل لا يأكل لقمة إلا ربى من أسفلها أكثر منها فشبعوا، وصارت أكثر مما هى قبل ذلك، فنظر إليها أبو بكر وامرأته فإذا هى أكثر مما كانت، فرفعها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجاء إليه أقوام كثيرون فأكلوا منها وشبعوا.

و"خبيب بن عدى" كان أسيراً عند المشركين بمكة – شرفها الله تعالى – وكان يؤتى بعنب يأكله وليس بمكة عنبه.

"وعامر بن قهيرة" قتل شهيداً فالتمسوا جسده فلم يقدروا عليه، وكان لما قتل رفع فرآه عامر بن الطفيل وقد رفع، وقال : عروة: فيرون الملائكة رفعته.

وخرجت "أم أيمن" مهاجرة وليس معها زاد ولا ماء فكـــادت تموت من العطش، فلما كان وقت الفطر، وكانت صـــائمة ســـمعت حساً على رأسها فرفعته فإذا دلو معلق فشربت منه حتى رويت وما عطشت بقية عمرها.

و"سفينة" مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر الأســـد بأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فمشى معه الأسد حتى أوصـــله مقصده.

"والبراء بن مالك" كان إذا أقسم على الله تعالى أبـــر قـــسمة، وكان الحرب إذا أشتد على المسلمين فى الجهاد يقولون: يا بـــراء، أقسم على ربك، فيقول : يا رب ، أقسمت عليك لما منحتنا أكتـــافهم فيهزم العدو، فلما كان يوم القادسية، قال أقسمت عليك يا رب لمـــا منحتنا أكتافهم وجعلتني أول شهيد، فمنحوا أكتافهم، وقتـــل البـــراء شهيداً .

وخالد بن الوليد حاصر منيعاً فقالوا: لا نسلم حتـــى تـــشرب السم، فشربه فلم يضره .

وسعد بن أبي وقاص كان مستجاب الدعوة ما دعـــا قـــط إلا استجيب له وهو الذي هزم جنود كسرى وفتح العراق

وعمر بن الخطاب لما أرسل جيشاً أمر عليهم رجلاً يـــسمى سارية، فبينما عمر يخطب فجعل يصيح على المنبر: "يـــا ســـارية الجبل، يا سارية الجبل" فقدم الجيش فسأل فقال: يا أمير المـــؤمنين لقينا عدوا فهزمونا، فإذا بصائح: يا سارية الجبل، فاستندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله .

ولما عذبت الزنيرة على الإسلام في الله فأبت إلا الإسلام وذهب بصرها، قال المشرطكون: أصاب بصرها اللات والعزى، فقالت: كلا والله، فرد الله عليها بصرها .

ودعا سعد بن زيد على أروى بنت الحكم فأعمى بصرها لما كذبت عليه فقال: اللهم إن كانت كاذبة فأعم بصرها، واقتلها في أرضها فعميت ووقعت في حفرة في أرضها فماتت .

والعلاء بن الحضرمي كان عامل الرسول صلى الله عليه وسلم على البحرين وكان يقول في دعائه: يا عليم، يا حليم، يا علي، يا عظيم، فيستجاب له، ودعا الله بأن يسقوا ويتوضئوا لما عدموا الماء والإسقاء لما بعدهم فأجيب، ودعا الله لما اعترضهم البحر ولم يقدروا على المرور بخيولهم فمروا كلهم على الماء ما ابتلت سروج خيولهم، دعا الله أن لا يروا جسده إذا مات فلم يجدوه في اللحد .

وكان عامر بن عبد قيس يأخذ عطاء ألفي درهم في كمه، وما يلقاه سائل في طريقه إلا أعطاه بغير عدد، ثم يجيء إلى بيته فلا يتغير عددها ولا وزنها، ومر بقافلة قد حبسهم الأسد فجاء حتى مس بثيابه ثم وضع رجله على عنقه وقال: إنما أنت كلب من كلاب الرحمن وإني أستحي أن أخاف شيئاً غيره، ومرت القافلة ودعا الله تعالى أن يهون عليه الطهور في الشتاء، فكان يؤتى بالماء له بخار، ودعا ربه أن يمنع قلبه من الشيطان وهو في الصلاة فلم يقدر.

وتغيب الحسن البصري عن الحجاج فدخلوا عليه ست مرات فدعا الله عز وجل فلم يروه، ودعا على بعض الخوارج كان يؤذيه فخر ميتاً .

وصلة بن أشيم مات فرسه في الغزو، فقال: اللهم لا تجعل لمخلوق على منة، ودعا الله عز وجل فأحيا له فرسه، فلما وصل إلى بيته قال: يا بني خذ سرج الفرس فإنه عارية، فأخذ سرجه فمات الفرس، وجاع مرة بالأهواز، فدعا الله عز وجل واستطعمه، فوقعت خلفه دخلة رطب في ثوب حرير فأكل التمر وبقى الثوب عند زوجته زماناً . وجاء الأسد وهو يصلي في غيضه بالليل فلما سلم قال له: اطلبي الرزق من غير الموضع، فولى الأسد وله زئير .

وكان سعيد بن المسيب في أيام الحرة يسمع الآذان من قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وكان المسجد قد خلا لم يبقى غيره .

ورجلا من النخع كان له حمار فمات في الطريق فقال له أصحابه: هلم متاعك على رحالنا، فقال لهم: أمهلوني هنية، ثم توضأ فأحسن الوضوء وصلى ركعتين ودعا الله فأحيا له حماره فحمل عليه متاعه .

ولما مات أويس القرني وجدوا في ثيابه أكفانا لم تكن معه قبل، ووجدوا له قبراً محفوراً فيه لحد في صخرة فدفنوه وكفنوه فيتلك الأثواب([١٦]) .

([١٦]) الفتاوى لابن تيمية ط دار الوفاء – القاهرة صـ١٥٢ وما بعدها .

سبب كرامات الأولياء

كرامات الأولياء لابد أن يكون سببها الإيمان والتقوى فما كان سببه الكفر والفسوق والعصيان فهو من خوارق أعداء الله لا من كرامات أولياء الله، فمن كانت خوارقه لا تحصل بالصلاة والقراءة والذكر وقيام الله والدعاء، وإنما تحصل عند الشرك مثل دعاء الميت الغائب، أو بالفسق والعصيان وأكل المحرمات، كالحيات والزنابير والخنافس والدم وغيره من النجاسات، ومثل الغناء والرقص، لا سيما والردان وحالة خوارقه تنقص عند سماعه القرآن وتقوى عند سماع مزامير الشيطان فيرقص ليلاً طويلاً، فإذا جاءت الصلاة صلى قاعداً أو ينقر الصلاة نقر الديك، وهو يبغض سماع القرآن، وينفر عنه ويتكلفه ليس له فيه محبة ولا ذوق ولا لذة عند وجده، ويجب سماع بكاء المكاء والتصدية ويجد عنده مواجيد فهذه أحوال شيطانية، وهو ممن يتناول قوله تعالى {ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين}[الزخرف:٣٦] .

فالقرآن هو ذكر الرحمن، قال الله تعالى {ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لما حشرتني أعمى وقد منت بصيراً قال كذلك أتت آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى}[طه:١٢٤-١٢٦] يعني تركت العمل بها، قال ابن عباس رضي الله عنهما يسمع: تكفل الله لمن قرأ كتابه وعمل بما فيه ألا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، ثم قرأ هذه الآية[١٧] .

(١٧) الفتاوى لابن تيمية ١٦٦/١١ ط دار الوفاء ١٩٩٧ .

ثانياً : مفهوم الفراسة :

الفراسة في اللغة :الفراسة، بالكسر. وفي الحديث : اتقوا فراسة المؤمن ؛ وفي الحديث : اتقوا فراسة المؤمن ؛ قال ابن الأثير : يقال بمعنيين : أحدهما ما دل ظاهر الحديث عليه، وهو ما يوقعه الله تعالى في قلوب أوليائه فيعلمون أحوال بعض الناس بنوع من الكرامات وإصابة الظن والحدس ،والثاني نوع يتعلم بالدلائل والتجارب والخلق والأخلاق، فتعرف به أحوال الناس، وللناس فيه تصانيف كثيرة قديمة وحديثة([١٨]).

أنواع الفراسة :

(١) فراسة إيمانية: سببها نور يقذفه الله في قلب عبده الصالح، فهي خاطر يثب على القلب وثوب الأسد على فريسته، وكلما كان العبد أقوي إيماناً، كان أقوى فراسة. قال ﷺ : " اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله " ثم قرأ قوله : {إن في ذلك لآيات للمتوسمين}([١٩]) .

قال أبو سليمان الداراني:" الفراسة مكاشفة النفس، ومعاينة الغيب، وهي من مقامات الإيمان".

(٢) فراسة رياضية : وهي التي تحصل بالجوع والسهر، فإن النفس إذا تجردت عن العوائق، صار لها من الفراسة والكشف

([١٨]) لسان العرب ٣٣٧٩/٢.

([١٩]) الحجر: ٧٥

بحسب تجردها. وهذا النوع مشترك بين المؤمن والكافر، ولا يـــدل على ولاية .

(٣) فراسة خلقية : وهي الاستدلال بالخلق علـــى الخلـــق، كالاستدلال بسعة الصدر علي سعة الخلق، ويضيقه على ضيقه .

وهذا النوع غير منضبط[٢٠] .

مفهوم الفراسة عند الإمام القشيري :

يرى الإمام القشيري أن الفراسة خاطر يهجم علـــى القلـــب فينفي ما يضاده وله على القلب حكم اشتقاقا من فريسة السبع وليس في مقابلة الفراسة مجوزات للنفس وهي على حسب قـــوة الإيمـــان فكل من كان أقوى إيمانا كان أحد فراسة.

وينقل الإمام القشيري في رسالته الشهيرة تعريفات السابقين للفراسة فيقول: وقال الواسطي : إن الفراسة سواطع أنوار لمعـــت في القلوب، وتمكين معرفة حملت السرائر في الغيوب من غيب إلى غيب حتى يشهد الأشياء من حيث أشهده الحق سبحانه إياها فيـــتكلم على ضمير الخلق. ويحكي عن أبي الحسن الديلمي أنه قال : دخلت أنطاكية لأجل أسود قيل لي إنه يتكلم على الأسرار فأقمت فيها إلـــى أن أخرج من جبل لكام ومعه شيء من المباح ببيعه وكنـــت جائعـــاً منذ يومين لم آكل شيئاً. فقلت له: بكم هذا؟ وأوهمت أني اشـــتري ما بين يديه. فقال: اقعد، ثم حتى إذا بعناه نعطيك ما نشتري به شيئاً فتركته، وسرت إلى غيره وأوهمه أني أساومه ثـــم رجعـــت إليـــه، وقلت له: إن كنت تبيع هذا فقل لي بكم ؟ فقال: إنما جعت يـــومين

([٢٠]) عقيدتنا، د/محمد ربيع الجوهري ص١٧١

اقعد. ثم حتى إذا بعناه نعطيك ما نشتري به شيئا فقعدت فلما باعـــه أعطاني شيئا ومشى فتبعته فالتفت إلي، وقال : إذا عرض لك حاجة فأنزلها بالله تعالى إلا أن يكون لنفسك فيها حظ فتحجـــب عـــن الله تعالى.

وسمعت محمد بن الحسين يقول: سمعت محمد بن عبـــد الله يقول: سمعت الكتاني يقول : الفراسة مكاشفة اليقين ومعاينة الغيـــب وهي من مقامات الإيمان. وقيل كان الشافعي ومحمد بـــن الحـــسن رحمهما الله تعالى في المسجد الحرام، فدخل رجل فقال : محمد بن الحسن : أتفرس أنه نجار، وقال الشافعي : أتفرس أنه حداد فسألاه، فقال: كنت قبل هذا حدادا والساعة أنجر..

وقال أبو سعيد الخراز : المستنبط من يلاحظ الغيـــب أبـــدا ولا يغيب عنه ولا يخفي عليه شيء وهو الذي دل عليه قوله تعالى {لعلمه الذين يستنبطونه منهم} والمتوسم هو الذي يعرف الوسم وهو العارف بما في سويداء القلوب بالاستدلال والعلامات قال الله تعالى {إن في ذلك لآيات للمتوســـمين} أي للعـــارفين بالعلامـــات التـــي يبديهاعلى الفريقين من أوليائه وأعدائه. والمتفرس ينظر بنـــور الله تعالى وذلك سواطع أنوار لمعت في قلبه فأدرك بها المعاني وهـــو من خواص الإيمان. والذين هم أكثر منه حظا الربـــانيون قـــال الله تعالى {كونوا ربانيين} يعني علماء حكماء متخلقين بـــأخلاق الحـــق نظرا وخلقا وهم فارغون عن الإخبار عن الخلـــق والنظـــر إلـــيهم والاشتغال بهما .

ويستمر القشيري في سرده لحكايات أهل الفراسة وأحوالهم ، يقول القشيري:سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي يقول: سمعت جدي أبا عمرو بن نجيد يقول: كان شاه الكراماني حاد الفراسة لا يخطئ ويقول: من غض بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشهوات، وعمر باطنه بدوام المراقبة، وظاهره باتباع السنة، وتعود أكل الحلال لم تخطيء فراسته .

وقال الحسين بن منصور: المتفرس هو المصيب بأول مرماه إلى مقصده، ولا يعرج على تأويل وظن وحسبان. وقيل : فراسة المريدين تكون ظنا يوجب تحقيقاً، وفراسة العارفين تحقيق يوجب حقيقة.

وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي : إذا جالستم أهل الصدق فجالسوهم بالصدق فإنهم جواسيس القلوب يدخلون في قلوبكم، ويخرجون منها من حيث لا تحسون. سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت منصور بن عبد الله يقول: سمعت الخلدي يقول سمعت أبا جعفر الحداد يقول : الفراسة أول خاطر بلا معارض فإن عارض معارض من جنسه فهو خاطر وحديث نفس .

ويروي عن أنس ابن مالك رضى الله عنه قال : دخلت على عثمان رضى الله عنه، وكنت رأيت في الطريق امرأة تأملت محاسنها، فقال عثمان رضي الله عنه : يدخل علي أحدكم وآثار الزنا ظاهرة على عينه، فقلت : أوحي بعد رسول الله ﷺ؟ فقال: لا ولكن تبصرة وبرهان وفراسة صادقة .

وقال أبو سعيد الخراز : دخلت المسجد الحرام فرأيت فقيــراً عليه خرقتان يسأل شيئاً فقلت في نفسي مثل هذا كل علـــى النـــاس فنظر إلى وقال {واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فأحذره}

ويحكى عن الجنيد أنه كان يقول له السري تكلم على الناس، فقال الجنيد: وكان في قلبي حشمة من الكلام على الناس فإني كنـــت أنهم نفسي في استحقاق ذلك، فرأيت ليلة النبي ﷺ في المنام وكانت ليلة جمعة، فقال لي: تكلم علي الناس فانتبهت وأتيت باب الـــسري قبل أن أصبح فدققت عليه الباب، فقال:لم تصدقنا حتى قيل لك. فقعد للناس في الجامع بالغد فانتشر في الناس أن الجنيد قعد يتكلم علـــى الناس فوقف عليه غلام نصراني متنكرا، وقال له أيها الـــشيخ: مـــا معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم " اتقوا فراســـة المـــؤمن فإن المؤمن ينظر بنور الله تعالى؟" فأطرق الجنيد ثم رفـــع رأســـه وقال: أسلم فقد حان وقد إسلامك فاسلم الغلام([٢١]).

([٢١]) إحياء علوم الدين ،ص ١١٥-١٢٠.

المبحث الرابع

الإلهـــام والمحاضـــرة والمكاشـــفة

ما الإلهام :

في القرآن الكريم وردت المادة مرة واحدة، بـــصيغة الفعـــل الماضي، وذلك في قوله تعالى: {فألهمهـــا فجورهـــا وتقواهـــا}([1])، وفسر ذلك " معجم ألفاظ القرآن الكريم " الصادر عن مجمع اللغـــة العربية بقولة: ألقى فيها إحساساً تفرق به بين الـــضلال والهـــدي، ولعل ذلك ما يعرف في عصرنا بـــ "الضمير".

وما ذكره المعجم مأخوذ مما روي عن مفسري السلف مثـــل مجاهد وغيره في معنى الآية .

وقال في القاموس المحيط :ألهمه الله خيراً :لقنه إياه .

وقال شارحه الزبيدي في تاج العروس: الإلهام: ما يلقي في الروع بطريق الفيض، ويختص بما من جهة الله والمـــلأ الأعلـــى، ويقال :إيقاع شيء في القلب يطمئن له الصدر، يخص بـــه الله مـــن يشاء من عباده([2]).

وفي لسان العرب: الإلهام أن يلقي الله في النفس أمراً يبعثـــه على الفعل أو الترك، وهو نوع من الوحي، يخص الله به من يـــشاء من عباد([3]).

([1]) الشمس: ٧-٨ .

([2]) تاج العروس مادة :لهم" .

([3]) مادة (لهم) من لسان العرب والتعريف مقتبس من النهاية لابن الإثير .

وفي شرح " العقائد النسفية" لسعد الدين التفتازاني :الإلهام إلقاء شيء في القلب بطريق الفيض([١]).

وفي "التعريفات" للشريف الجرجاني: الإلهام: ما يلقي في الروع بطريق الفيض، وقيل :الإلهام ما وقع من علم وهو يدعو إلى العمل من غير استدلال بآية ولا نظر في حجة، والفرق بينه وبين الإعلام: أن الإلهام أخص من الإعلام ؛ لأنه قد يكون بطريق الكسب، وقد يكون بطريق التنبيه([٢]).

وفي "النهاية" لابن الأثير في مادة "لهم" ذكر حديث: "اللهم إني أسألك رحمة من عندك تلهمني بها رشدي"([٣])، ثم قال :الإلهام :أن يلقي الله في النفس أمراً يبعثه على الفعل أو الترك وهو نوع من الوحي يخص الله به من يشاء من عباده ([٤]).

وفي مادة "حدث"، ذكر حديث: "قد كان في الأمم محدثون، فإن يكن في أمتي أحد فعمر بن الخطاب"([٥])، قال :جاء في الحديث تفسيره أنهم الملهمون، والملهم هو الذي يلقي في نفسه الشيء، فيخبر به حدساً وفراسة وهو نوع يختص به الله من يشاء من عباده الذين اصطفي، مثل عمر، كأنهم حدثوا بشيء فقالوه([٦]).

([١]) شرح العقائد النسفية مع حواشيها، ص ٤١، طبع مصطفي الحلبي .

([٢]) التعريفات للجرجاني، ص ٥٧، طبع عالم الكتب، بيروت، تحقيق الدكتور عبد الرحمن عميرة.

([٣]) من حديث رواه الترمذي والطبراني والبيهقي عن ابن عباس، وقال الترمذي :غريب، وذكره في ضعيف الجامع الصغير.

([٤]) النهاية :٢٨٢/٤.

([٥]) متفق عليه .

([٦]) النهاية في غريب الحديث والأثر ٣٥٠/١ طبع عباس الحلبي .

وعرفه العلامة أبو زيد الدبوسي من فقهاء الحنفية، بقولــه : هو ما حرك القلب لعلم يدعو إلى العمل به من غير استدلال([1]).

وهذه التعريفات كلها تدور حول معنــى أساســي، وهــو أن الإلهام إلقاء معنى أو فكرة أو خبر أو حقيقة، في النفس أو القلب أو الروع بطريق الفيض، بمعني أن يخلق الله فيه علمــاً ضــرورياً لا يملك دفعه. أي ليس بطريق التعلم والاكتساب المعهــود، بــل هــو يفاض على النفس فيضاً، بغير اختيارها ولا إرادتها، ســواء ســعت إليه سعياً عن طريق الرياضة الروحية وتفريغ القلب من كل شيء، كما سيأتي ذلك بعد في كلام الإمام الغزالي، أم أفيض ذلــك عليهــا كرامة من الله لها، وخرقاً للعوائد من أجلها، وإن لم تتعمد الــسعي إليه.

ومن شأن هذا العلم الضروري إذا ألقي في القلب أن يحــرك إلى العمل، ويبعث على الفعل أو الترك، كمــا جــاء فــي بعــض التعريفات، فهو نتيجة وثمرة له .

والتعريفات التي ذكرت أن الإلهام نوع من الــوحي يقــصد بها :أنها نوع من الوحي بمعناه اللغــوي، وهــو الإعــلام بخفــاء وسرعة، وأو أنه نوع من الوحي بالنسبة للأنبياء، فهو أحد طــرق الوحي المتضمنة في قوله تعالى: {وما كان لبشر أن يكلمــه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم}([2]).

([1]) نقله الحافظ بن حجر في فتح الباري ٤٣/١٦ طبع مصطفى الحلبي .

([2]) الشورى : ٥١ .

فقوله: {إلا وحياً} يشمل ما كان عن طريق الإلهـام والنفـث في الروع في اليقظة، وما كان عن طريق الرؤيا المنامية، فرؤيـا الأنبياء وحي .

وهذا الإلهام أو الكشف هو ضرب من المعرفـة الروحيـة المباشرة، التي عرفتها بعض المدارس الفلسفية قديماً وحديثاً، وهي المعرفة عن طريق "الحدس" أو "البصيرة"، وفي الفلـسفة القديمـة عرفت بذلك "الغنوصية".

وفي الفلسفة الحديثة عـرف فلاسـفة أشـهرهم الفيلـسوف الفرنسي "هنري برجسون" الذي أطلق عليه :فيلسوف الـروح فـي القرن العشرين .

الإلهام والتحديث :

ويسأل هنا :هل الإلهام هو نفس الحـديث الـذي جـاء فـي الحديث الصحيح: "إنه كان قبلكم محدثون"، أو هو غيره، أو بينهمـا عموم وخصوص ؟

يظهر من كلام صاحب "النهاية" أنهما بمعنى واحـد، ومثـل ذلك ما ذكره شيخ الإسلام إسـماعيل الهـروي صـاحب "منـازل السائرين إلى مقامات: إياك نعبد وإياك نستعين"، فهو لـم يفـرق بينهما، وذهب إلى أنهما شيء واحد، وقد جاء فـي عـدة روايـات تفسير التحديث بالإلهام.

ولكن شارح "المنازل" الإمام ابن القيم في كتابـه " مـدارج السالكين " خالف الهروي، ورأى أن بين الإلهام والتحديث عمومـاً

وخصوصاً، فالتحديث أخص، والإلهام أعم، فكل تحديث إلهام، وليس كل إلها تحديثاً .

قال :التحديث أخص من الإلهام، فإن الإلهام عام للمؤمنين بحسب إيمانهم، فكل مؤمن فقد ألهمه الله رشده الذي حصل له به الإيمان .

فأما التحديث :فالنبي ﷺ قال فيه: "إن يكن في هذه الأمة أحد فعمر" يعني من المحدثين. فالتحديث إلهام خاص، وهو الوحي إلى غير الأنبياء، إما من المكلفين، كقوله تعالى: {وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه}([1])، وقوله: {وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي}([2])، وإما من غير المكلفين، كقوله تعالى :{وأوحي ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون}([3])، فهذا كله وحي إلهام([4]).

الإلهام والفراسة :

ومما له صلة بالإلهام: الفراسة، فما معنى الفراسة؟ وما العلاقة بينها وبين الإلهام ؟

يقول الراغب في كتابه "**الذريعة إلى مكارم الشريعة**":

وأما الفراسة :فالاستدلال بهيئات الإنسان وأشكاله وألوانه وأقواله على أخلاقه وفضائله ورذائله، وربما يقال: هي صناعة صياده لمعرفة أخلاق الإنسان وأحواله، وقد نبه الله تعالى على

([1]) القصص: ٧ .

([2]) المائدة : ١١١ .

([3]) النحل : ٨٦ .

([4]) مدارج السالكين ١/٤٤ ، ٤٥ .

صدقها بقوله تعالى: {إن في ذلك لآيات للمتوسمين}([1])، وقوله: {تعرفهم بسيماهم}([2])، وبقوله: {ولتعرفنهم في لحن القول}([3]) .

والضرب الثاني من الفراسة :يكون بصناعة متعلمة، وهي معرفة ما بين الألوان والأشكال، وما بين الأمزجة والأخلاق والأفعال الطبيعية، ومن عرف ذلك وكان ذا فهم ثاقب، قوي في الفراسة، وقد عمل في ذلك كتب، فمن تتبع الصحيح منها طلع منها على صدق ما ضمنوه .

والفراسة ضرب من الظن، وقد سئل بعض محصلة الصوفية عن الفرق بينهما، فقال :الظن ينقلب القلب، والفراسة بنور الرب تعالي، وكل من قوي في نور الروح المذكور في قوله تعالى: {ونفخت فيه من روحي}([4])، كان ممن وصف بقوله تعالى: {أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه}([5]) وكان ذلك النور شاهداً منه أصاب فيما حكم به .

ومن الفراسة :علم الرؤيا، وقد عظم الله أمرها في جميع الكتب المنزلة([6]).

والراغب هنا لا يفرق بين الإلهام والفراسة والتحديث .

([1]) الحجر : ٧٥ .

([2]) البقرة: ٢٧٥ .

([3]) محمد : ٣٠ .

([4]) الحجر: ٢٩ .

([5]) هود: ١٧ .

([6]) الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني ص ١٨٦ – ١٨٨، تحقيق د. أبو اليزيد العجمي، نشر دار الصحوة بالقاهرة .

وأما الهروي في "المنازل"، فقد جعل مقام الإلهام فوق مقام الفراسة، لأن الفراسة ربما وقعت نادرة، واستصعبت على صاحبها وقتاً، واستعصت عليه، والإلهام لا يكون إلا في مقام عتيد .

وناقش ابن القيم الهروي في ذلك فقال :

"وأما جعله فوق مقام الفراسة :فقد احتج عليه بأن الفراسة ربما وقعت نادرة كما تقدم، والنادر لا حكم له، وربما استعصت على صاحبها واستصعبت عليه فلم تطاوعه، والإلهام لا يكون إلا في مقام عتيد، يعني في مقام القرب والحضور .

والتحقيق في هذا :أن كل واحد من "الفراسة" و "الإلهام" ينقسم إلى عام وخاص، وخاص كل واحد منهما فوق عام الآخر، وعام كل واحد قد يقع كثيراً، وخاصة قد يقع نادراً، ولكن الفرق الصحيح :أن الفراسة قد تتعلق بنوع كسب وتحصيل، وأما الإلهام فموهبة مجردة، لا تنال بكسب ألبتة "([1]).

أثر التقوى والمجاهدة في الهداية والإلهام :

ولا نزاع في أن الإيمان والعبادة والتقوى، ومجاهدة النفس، لها أثرها في تنوير العقل، وهداية القلب، والتوفيق إلى إصابة الحق في الأقوال، والسداد في الأعمال، والخروج من مضايق الاشتباه إلى باحات الوضوح، ومن اضطراب الشك إلى ثبات اليقين .

ولا نزاع كذلك في أن يكشف الله لبعض المتقين من عباده من حقائق العلم، وأنوار المعرفة، في فهم كتابه أو سنة نبيه، بمحض الفيض الإلهي والفتح الرباني ما يلهث كثيرون ليحصلوا

([1]) مدارج السالكين : ٤٥/١

عليه بالمذاكرة والتحصيل، فلا يظفرون بما يدانيه، بشرط أن يحصلوا الأدوات الضرورية لفهم العلم .

وهذا ما جعل كثيراً من كبار العلماء المؤلفين في التفسير والحديث والفقه وغيرها، يجعلون في عناوين كتبهم كلمات مثل : الفتح، والفيض ..ونحوهما([1]).

ولا نزاع كذلك في أن يوهب بعض الناس من صدق الفراسة وقوتها ما يستطيع به أن يكتشف شخصية المرء يلقاه بنظرة إليه، أو كلمة يسمعها منه، أو يقرأ أفكاره، أو يعرف بعض ما يجول بنفسه .

وهي موهبة فطرية لدي بعض الناس تقويها الرياضة والمجاهدة، وتنميها تقوي الله تعالي، ويصقلها الإيمان واليقين بالله تعالى وبالدار الآخرة، حتى إن المؤمن لتصدق فراسته، كأنما ينظر بنور الله، وينطق بلسان القدر، ويبصر الغيب من وراء ستر رقيق([2]) .

ولقد تناول مفهوم الإلهام والمجاهدة والمكاشفة الكثير من المتصوفة مثل القشيري في" الرسالة القشيرية" والهجويري في كتابه" كشف المحجوب" والغزالي في " إحياء علوم الدين" .

وسنكتفي هنا بذكر تصورهم للمفاهيم السابقة.

أولاً : مفهوم المحاضرة والمكاشفة عند الهجويري :

([1]) مثل "فتح الباري :لابن حجر، و "فتح القدير " لابن الهمام في الفقه، و "فتح القدير " للشوكاني في التفسير، و " فتح العزيز " للرافعي، و "فتح الملك العلام " لصديق حسن خان، و " فيض القدير " للمناوي، و " فيض الباري " للكشميري وغيرها.

([2]) موقف الإسلام د/يوسف القرضاوي صـ٣١ .

المحاضرة والمكاشفة والفرق بينهما :

اعلم أن المحاضرة تطلق على حضور القلب في لطائف البيان، والمكاشفة تطلق على تحير السر في خطر العيان، فالمحاضرة دوام الفكر في رؤية الآية، وعلامة المكاشفة دوام التحير في كنه العظمة. وهناك فرق كبير بين من يتفكر في الأفعال، وبين من يتحير في الجلال، فواحد من هذين يكون رديف الخلة، والآخر قرين المحبة :أما رأيت أنه حين نظرا الخليل صلوات الله عليه في ملكوت السماوات، وتأمل وتفكر في حقيقة وجودها، حضر قلبه بذلك، وصار برؤيته للفعل طالباً للفاعل، حتى أن حضوره صير الفعل دليلا للفاعل، وقال في كمال المعرفة :" {إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا}([1]). وعندما حمل الحبيب إلى الملكوت غض الطرف عن رؤية الكل، فلم ير الفعل، ولم ير الخلق، ولم ير نفسه، حتى كوشف بالفاعل، فازداد في الكشف شوقها على شوقه، وازداد قلقا على قلقه، فطلب الرؤية، فلم تبد الرؤية، فطلب القربة، فلم تمكن القربة، فقصد الوصلة، فلم تتحق الوصلة، وكلما ازداد حكم تنزيه الحبيب ظهورا على القلب، ازداد شوقه إلى الحبيب، ولم يكن هناك وجه للاعراض أو الامكان، فتحير، فحينما كانت الخلة بدت الحيرة كفرا، وحيثما كانت المحبة صارت الوصلة شركا، وصارت الحيرة هي الأصل، لأن الحيرة هنالك كانت في الوجود، وذلك شرك، وكانت هنا في الكيفية، وهذا توحيد، ولهذا قال الشبلي رحمه الله: "يا دليل

([1]) سورة الأعراف: ١٤٣ .

المتحيرين زدني تحيرا"، لأن زيادة التحير في المشاهدة تكون زيادة في الدرجة.

ومشهور في الحكايات في هذا المعني أنه عندما كـان أبـو سعيد الخراز رضي الله عنه مع إبراهيم بن سـعد العلـوي علـى شاطيء البحر، شاهدا أحد أحباء الله، فسألاه :ما طريق الحق، قال : الطريق إلى الحق طريقان :أحداهما طريق العامة والثـاني طريـق الخاصة، فقال :أشرح، فقال :طريق العوام هو الذي تسير فيه، فتقبل لعلة، وترد لعلة. وطريق الخواص هو أنهم يرون معلـل العلـة لا العلة.([1]).

ثانياً : مفهوم المحاضرة والمكاشفة والمشاهدة عند القشيري :

هي المحاضرة ابتداء ثم المكاشفة ثم المشاهدة فالمحاضـرة حضور القلب وقد يكون بتواتر البرهان وهو بعد وراء الستر، وإن كان حاضرا باستيلاء سلطان الذكر، ثـم بعـده المكاشـفة :وهـو حضوره بنعت البيان غير مفتقر في هذه الحالة إلى تأمـل الـدليل وتطلب السبيل، ولا مستجير من دواعي الريب، ولا محجوب عـن نعت العيب، ثم المشاهدة :وهي حضور الحق من غير بقاء تهمـة، فإذا أصبحت سماء السر عن غيوم الستر فشمس الشهود مشرقة عن برج الشرف.

وحق المشاهدة ما قاله الجنيد رحمه الله :وجود الحـق مـع فقدانك فصاحب المحاضرة مربوط بأياتـه، وصـاحب المكاشـفة مبسوط بصفاته، وصاحب المشاهدة تمحوه معرفته .

([1]) كشف المحجوب ٢/٦١٨ ، ٦١٩ .

ولم يزد في بيان تحقيق المشاهدة أحد على ما قاله عمرو بن عثمان المكي رحمه الله، ومعني ما قاله :أنه تتوالى أنوار التجلي على قلبه من غير أن يتخللها ستر وانقطاع، كما لو قدر اتصال البروق فكما أن الليلة الظلماء بتوالي البروق فيها وإتصالها إذا قدرت تصير في ضوء النهاء فكذلك القلب إذا رم به دوام التجلي متع نهاره فلا ليل وأنشدوا :

ليلي بوجهك مشرق وظلامه في ناس ساري

والناس في سدف الظلام ونحن في ضوء النهار

وقال الثوري :لا يصح للعبد المشاهدة وقد بقي له عرق قائم، وقال :إذا طلع الصباح استغنى عن المصباح وتوهم قوم أن المشاهدة تشير إلى طرف من التفرقة لأن باب المفاعلة في العربية بين أثنين وهذا وهم من صاحبه فإن في ظهور الحق سبحانه ثبور الخلق، وباب المفاعلة جملتها لا تقتضي مشاركة الاثنين نحو سافر وطارق النعل وأمثاله وأنشدوا :

فلما استبان الصبح أدرك ضوؤه بأنواره أنوار ضوء الكواكب

يجرعهم كأساً لو ابتلي به اللظي بتجريعه طارت كأسرع ذاهب

كأس وأي كأس تصطلمهم عنهم، وتفنيهم، وتختطفهم منهم، ولا تبقيهم كأس لا تبقي ولا تذر، تمحوهم بالكلية ولا تبقي شظية

من آثار البشرية كما قال قائلهم " ســاروا فلــم يبــق لا رســم ولا أثر([1]).

ثالثاً : مفهوم الإلهام والمجاهدة عند الغزالي :

يقسم الإمام الغزالي في كتابه الشهير "إحياء علــوم الــدين" كيفية تحقق العلم وثبوته، ويرى أن اكتسابه يكون بطريقين:

الطريق الأول: هو الاستدلال والتعلم.

الطريق الثاني: هو الإلهام.

ويتحدث بعد ذلك عن ابتعاد بعض المتصوفة عن طرق العلم المعروفة للجميع، ويعيب عليهم في نهاية الأمر.يقــول الغزالــي:" اعلم أن العلوم التي ليست ضرورية، وإنما تحصل في القلــب فــي بعض الأحوال تختلف الحال في حصولها، فتارة تهجم على القلــب كأنه ألقى فيه من حيث لا يدري، وتارة تكتسب بطريق الاســتدلال والتعلم، فالذي يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلــة الــدليل يــسمي إلهاماً. والذي يحصل بالاستدلال يسمي اعتبارا واستبصاراً.

ثم الواقع في القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد ينقسم إلى :ما لا يدري العبد أنه كيف حصل له ومن أين حصل وإلي مــا يطلع معه على السبب الذي منه استفاد ذلك العلم وهو مشاهدة الملك الملقي في القلب والأولي :يمسى إلهاماً ونفثا في الروح. والثــاني : يسمي وحيا وتختص به الأنبياء .

والأول :يختص به الأولياء والأصفياء والــذي قبلــه وهــو المكتسب بطريق الاستدلال يختص به العلماء وحقيقة القول فيــه أن

([1]) الرسالة القشيرية صـــ٤٣ ط الحلبي .

القلب مستعد لأن تنجلي فيه حقيقة الحق في الأشياء كلها وإنما حيل بينه وبينها فهي كالحجاب المسدل الحائل بين مـرآة القلـب وبـين اللوح المحفوظ الذي هو منقوش بجميع ما قضى الله به إلـى يـوم القيامة وتجلي حقائق العلوم من مرآة اللوح في مرآة القلب يضاهي انطباع صورة من مرآة في مرآة تقابلها والحجاب بـين المـرآتين تارة يزال باليد وأخري يزول بهبوب الرياح تحركه وكذلك قد تهب رياح الألطاف وتنكشف الحجب عن أعين القلوب، فينجلـي فيهـا بعض ما هو مسطور في اللوح المحفوظ، ويكون ذلك تـارة عنـد المنام فيعلم به ما يكون في المـستقبل. وتمـام ارتفـاع الحجـاب بالموت فيه ينكشف الغطاء وينكشف أيضاً في اليقظة حتـى يرتفـع الحجاب بلطف خفي من الله تعالى فيلمع في القلوب من وراء سـتر الغيب شيء من غرائب العلم تارة كالبرق الخاطف وأخري علـى التوالي إلى حد ما ودوامه في غاية النـدور فلـم يفـارق الإلهـام الاكتساب في نفس العلم ولا في محله ولا في سببه، ولكن يفارقـه من جهة زوال الحجاب فان ذلك ليس باختيار العبـد ولـم يفـارق الوحي الإلهام في شيء من ذلك، بل في مشاهدة الملك المفيد للعلم، فإن العلم إنما يحصل في قلوبنا بواسطة الملائكـة وإليـه الاشـارة بقوله تعالى {وما كان لبشر يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجـاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء} فإذا عرفت هـذا فـأعلم أن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليميـة فلـذلك لـم يحرصوا على دراسة العلم و تحصيل ما صنفه المصنفون والبحـث عن الأقاويل والأدلة المذكورة بل قالوا الطريـق تقـديم المجاهـدة

ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولي لقلب عبده والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم وإذا تولي الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة وأشرق النور في القلب وانشرح الصدر وانكشف له سرا الملكوت وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية ،فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة، وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة، والتعطش التام والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر وفاض على صدورهم النور لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب، بل بالزهد في الدنيا والتبري من علائقها وتفريغ القلب من شواغلها، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى فمن كان لله كان الله له وزعموا أن الطريق في ذلك أولا بانقطاع علائق الدنيا بالكلية وتفريغ القلب منها، وبقطع الهمة عن الأهل والمال والولد والوطن عن العلم والولاية والجاه، بل يصير قلبه إلى حالة يستوي فيها وجود كل شيء وعدمه، ثم يخلو بنفسه في زاوية مع الاقتصار على الفرائض والرواتب، ويجلس فارغ القلب مجموع الهم، ولا يفرق فكرة بقراءة قرآن ولا بالتأمل في تفسير ولا بكتب حديث ولا غيره بل يجتهد أن لا يخطر بباله شيء سوي الله تعالى فلا يزال بعد جلوسه في الخلوة قائلا بلسانه الله الله على الدوام مع حضور القلب حتى ينتهي إلى حالة يترك تحريك اللسان ويري كأن الكلمة جارية على لسانه، ثم يصير عليه إلى أن يمحي أثره على اللسان، ويصادف قلبه مواظبا على الذكر، ثم

يواظب عليه إلى أن يمحي عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئـــة الكلمة ويبقي معنى الكلمة مجردا في قلبه حاضرا فيه كأنه لازم لـــه لا يفارقه وله اختيار إلى أن ينتهي إلى هـــذا الحـــد واختيـــار فـــي استدامة هذه الحالة برفع الوسواس، وليس له اختيار في اســـتجلاب رحمة الله تعالى بل هو بما فعله صار متعرضا لنفحات رحمـــة الله فلا يبقي إلا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة كمـــا فتحهـــا علـــى الأنبياء والأولياء بهذا الطريق وعند ذلك إذا صدقت إرادته وصفت همته وحسنت مواظبته فلم تجاذبه شهواته ولم يشغله حديث الـــنفس بعلائق الدنيا تلمع لوامع الحق في قلبه، ويكون في ابتدائه كـــالبرق الخاطف لا يثبت، ثم يعود وقد يتأخر وإن عاد فقد يثبت وقد يكـــون مختطفا، وإن ثبت قد يطول ثباته وقد لا يطول، وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق وقد يقتصر على فن واحد ومنازل أولياء الله تعالى فيه لا تحصر كما لا يحصي تفاوت خلقهم وأخلاقهم، وقد رجـــع هـــذا الطريق إلى تطهير محض من جانبك وتصفية وجلاء ثـــم اســـتعداد وانتظار فقط .

وأما النظار وذووا الاعتبار فلم ينكروا وجود هذا الطريـــق وإمكانه وإفضاءه إلى هذا المقصد على الندور فإنـــه أكثـــر أحـــوال الأنبياء، ولكن استوعروا هذا الطريق واستبطؤا ثمرته واســـتبعدوا استجماع شروطه، وزعموا أن محو العلائق إلى ذلك الحد كالمعتذر وان حصل في حال فثباته أبعد منه إذ أدني وسواس وخاطر يشوش القلب وقال رسول الله ﷺ وسلم قلب المؤمن أشد تقلبا من القدر فـــي غليانها، وقال ﷺ "قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الـــرحمن".

وفي أثناء هذه المجاهدة قد يفسد المزاج ويختلط العقــل ويمــرض البدن، وإذا لم تتقدم رياضة النفس وتهذيبها بحقائق العلــوم نــشبت بالقلب خيالات فاسدة تطمئن النفس إليها مدة طويلة إلى أن يــزول وينقضي العمر قبل النجاح فيها. فكم من صوفي سلك هذا الطريــق ثم بقي في خيال واحد عشرين سنة، ولو كان قد أتقن العلم من قبل لا تفتح له وجه التباس ذلك الخيال في الحال فالاشــتغال بطريــق التعلم أو ثق وأقرب إلى الغرض وزعموا أن ذلك يضاهي مــا لــو ترك الإنسان تعلم الفقه .

وزعم أن النبي ﷺ لم يتعلم ذلك وصار فقيها بالوحي والإلهام من غير تكرير وتعليق فأنا أيضا بما انتهت به الرياضة والمواظبة إليه ومن ظن ذلك فقد ظلم نفسه وضيع عمره، بل هو كمن يتــرك طريق الكسب والحراثة رجاء العثور على كنز من الكنوز فإن ذلــك ممكن ولكنه بعيد جداً فكذلك هذا وقالوا: لابد أولاً من تحصيل مــا حصله العلماء وفهم ما قالوه ثم لا بأس بعد ذلك بالانتظار لمــا لــم ينكشف لسائر العلماء فعساه ينكشف بعد ذلك بالمجاهدة[1] .

---

(1) إحياء علوم الدين ١٦/٣ ، ١٧ .

المبحث الخامس

المقامات التي تؤدي إلى تحقق البصيرة

أولاً : المقامات القلبية :

وهي التي تتعلق بالقلب وهذه المقامات كثيرة، وسنكتفي منها بما يأتي :

١- الزهد :

تعريف الزهد: يعرف الإمام الرازي الزهد بتعريف نلمح فيه الابتعاد عن الدنيا والإعراض عنها نهائياً.يقول الرازي":وهو عدم الإلفات إلى الدنيا بحذافيرها مالها، وجاهها، وشهواتها، وزينتها، وزخارفها. رغبة في الآخرة، ونعيمها الباقية. كما قال تعالى: {تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا}(1) .

وهذا أول مرتبته في الزهد التي جبل عليها، وهذا النوع من الزهد كالبذر في أرض القلب. فبالتربية بماء الشريعة وآداب دهقنه الطريقة تنبت منه شجرة الزهد فيما يشغله عن الله وتثمر ثمرة الزهد فيما سوي الله .

فالزهد رأس مال السائرين إلى الله تعالي، ولهم في كل مقام ربح منه إلى ما لا نهاية له. كما قال "ذو النون": "من علامة الزهد المشروح صدره ثلث تفريق المجموع وترك طلب المقصود، والإيثار عند القوت".

---

(1) سورة القصص: ٨٣ .

وصحة الزهد بالورع، والتوكل، والتقوى، والصدق([2]) .

والمتطلع إلى الرسالة القشيرية يرى مدى إسهاب القشيري في النقل عن السابقين له، واختلافهم في تحديد معنى الزهد، وإن كانت جميعها تشير إلى مفهوم واحد، وهو الابتعاد عن دنيا الناس.يقول الإمام القشيري:" اختلف الناس في الزهد فمنهم من قال الزهد في الحرام لأن الحلال مباح من قبل الله تعالى فإذا أنعم الله سبحانه على عبده بمال كم حلال وتعبده بالشكر عليه فتركه له باختياره لا يقدم على إمساكه بحق إذنه، ومنهم من قال الزهد في الحرام واجب وفي الحلال فضيلة، فإن إقلال المال والعبد صابر في حاله راض بما قسم الله تعالى له قانع بما يعطيه أتم من توسعه وتبسطه في الدنيا، وأن الله تعالى زهد الخلق في الدنيا بقوله {قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى} وغير ذلك من الآيات الواردة في ذم الدنيا والتزهيد فيها، ومنهم من قال إذا أنفق ماله في الطاعة وعلم من حالة الصبر وترك التعرض لما نهاه الشرع عنه في حال العسر فحينئذ يكون زهده في المال الحلال أتم، ومنهم من قال ينبغي للعبد أن لا يختار ترك الحلال بتكلفه ولا طلب الفضول مما لا يحتاج إليه ويراعي القسمة فإن رزقه الله سبحانه وتعالي مالا من حلال شكره وإن وقفه الله تعالى على حد الكفاية لم يتكلم في طلب ما هو فضول المال فالصبر أحسن بصاحب الفقر والشكر أليق بصاحب المال الحلال.

([2]) منارات السائرين صـ ٣٦٠ .

معنى الزهد

قال سفيان الثوري :الزهد في الدنيا قصر الأمل ليس بأكل الغليظ ولا بلبس العباء.

وسمعت الجنيد يقول، سمعت السري يقول:" إن الله سلب الدنيا عن أوليائه، وحماها عن أصفيائه، وأخرجها من قلوب أهل وداده ؛ لأنه لم يرضها لهم".

وقيل الزهد من قوله تعالى {لكيلا لا تأسوا على ما فاتكم ولتفرحوا بما آتاكم} فالزاهد لا يفرح بموجود من الدنيا، ولا يتأسف على مفقود منها :قال أبو عثمان الزهد أن تترك الدنيا ثم لا تبالي بمن أخذها. سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول :الزهد أن تترك الدنيا كما هي لا تقول أبني رباطا أو أعمر مسجدا.

وقال يحيي بن معاذ :الزهد يورث السخاء بالملك والحب يورث بالروح، وقال ابن الجلاء :الزهد والنظر إلى الدنيا بعين الزوال لتصغر في عينك فيسهل عليك الإعراض عنها. وقال ابن خفيف :علامة الزهد وجود الراحة في الخروج عن الملك. وقال أيضا الزهد سلو القلب عن الأسباب ونفض الأيدي من الأملاك وقيل الزهد عزوف النفس عن الدنيا بلا تكاتف.

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي يقول سمعت النصر اباذي يقول :الزاهد غريب في الدنيا والعارف غريب في الآخرة.

وقال أحمد بن حنبل :الزهد على ثلاثة أوجه: الأول: ترك الحرام وهو زهد العوام .

والثاني ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص .

والثالث ترك ما يشغل العبد عن الله تعالى وهو زهد العارفين. سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول :قيل لبعضهم لم زهدت في الدنيا قال لما زهدت في أكثرها أنفت من الرغبة في أقلها. وقال يحيي بن معاذ :الدنيا كالعروس ومن يطلبها ماشطتها والزاهد فيها يسخم وجهها، وينتف شعرها ويخرق ثوبها، والعارف مشتغل بالله تعالى لا يلتفت إليها.

سمعت أبا عبد الله الصوفي، يقول :سمعت أبا الطيب السامري، يقول :سمعت الجنيد، يقول :سمعت السري يقول مارست كل شيء من أمر الزهد فنلت منه ما أريد إلا الزهد في الناس فانى لم أبلغه ولم أطقه. وقيل ما خرج الزاهدون إلا إلى أنفسهم لأنهم تركوا النعيم الفاني للنعيم الباقي([٣]).

الزهد عند ابن تيمية

والزهد مشروع هو: ترك الرغبة فيما لا ينفع في الدار الآخرة، وهو فضول المباح التي لا يستعان بها على طاعة الله، كما أن الورع المشروع هو: ترك ما قد يضر في الدار الآخرة، وهو ترك المحرمات والشبهات التي لا يستلزم تركها ترك ما فعله أرجح منها، كالواجبات، فأما ما ينفع في الدار الآخرة بنفسه أو يعين على ما ينفع في الدار الآخرة، فالزهد فيه ليس من الدين بل صاحبه داخل فيقوله تعالى {يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين}[المائدة:٨٧]، كما أن

([٣]) الرسالة القشيرية صـ٦٠ – ٦٢ .

الاشتغال بفضول عاصياً، وإلا كان منقوصاً عن درجـــة المقـــربين إلى درجة المقتصدين .

وأيضاً فإن التوكل هو محبوب لله مرضي لـــه مـــأمور بـــه دائماً، وما كان محبوباً لله مرضياً له مأموراً به دائماً لا يكون مـــن فعل المقتصدين دون المقربين، فهذه ثلاثـــة أجوبـــة عـــن قـــولهم: المتوكل يطلب حظوظه .

وأما قولهم: إن الأمور قد فزغ منها، فهذا نظيـــر مـــا قالـــه بعضهم في الدعاء أنه لا حاجة إليه؛ لأن المطلوب إن كان مقـــدراً فلا حاجة إليه، وإن لم يكن مقدراً لك ينفع الدعاء، وهـــذا القـــول م أفسد الأقوال شرعاً وعقلاً .

وكذلك قول من قال: التوكل والدعاء لا يجلب به منفعـــة ولا يدفع به مضرة، وإنما هو عبادة محضة، وإن حقيقة التوكل بمنزلـــة حقيقة التفويض المحض، وهذا وإن كان قاله طائفة من المشائخ فهو غلط، وكذلك قول من قال: إن الدعاء إنما هو عبادة .

والزهد النافع المشروع الذي يحبه الله ورسوله هـــو الزهـــد فيما لا ينفع في الآخرة، فأما ما ينفع في الآخرة وما يستعان به على ذلك، فالزهد فيه زهد في نوع م عبادة الله وطاعته، والزهـــد إنمـــا يراد لأنه زهد فيما يضر، أو زهد فيما لا ينفع، فأمـــا فـــي النـــافع فجهل وضلا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "احرص على مـــا ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن" .

والنافع للعبد هو عبادة الله وطاعته وطاعة رسوله، وكل مـــا صده عن ذلك فإنما ضار لا نافع، ثم الأنفع له أن تكون كل أعمالـــه

عبادة لله وطاعة له، وإن أدى الفرائض وفعل مباحاً لا يعينه على الطاعة فقد فعل ما ينفعه وما لا ينفعه ولا يضره([٤])

٢ - **الورع :**

يعرف الإمام الرازي الورع بأنه: ترك الشبهات .

قال رسول الله ﷺ :" من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه ". أي ترك الفضلات ، وقال ﷺ لأبي هريرة :" كن ورعا تكن أعبد الناس "

قال :أبو بكر الصديق "، رضي الله عنه :" كنا ندع سبعين بابا من الحلال مخافة أن نقع في باب من الحرام ".

قلت :المتورع :من يتورع في الطعام، والشراب، واللباس، والمنطق، والنظر، والخواطر، والأفعال الظاهرة، والأحوال الباطنة. حتى لا يتحرك في الظاهر إلا لله، ولا يقصد في الباطن إلا الله. ويتورع عما سوي الله .

وقيل :حمل إلى " عمر بن عبد العزيز " مسك من الغنائم فقبض على مشامه، وقال :

إنما ينتفع من هذا بريحه، وأنا أكره أن أجد ريحه دون المسلمين .

قال الأستاذ الإمام رضي الله عنه :أما الورع فإنه ترك الشبهات. كذلك قال إبراهيم بن أدهم :الورع ترك كل شبهة وترك ما لا يعنيك هو ترك الفضلات. وسمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي، يقول :سمعت أبا العباس البغدادي يقول سمعت جعفر بن

([٤]) فتاوى بن تيمية ٢٩٠/١٠ .

محمد، يقول :سمعت الجنيد، يقول سمعت السري يقول :كـــان أهـــل الورع في أوقاتهم أربعة :حذيفة المرعشي، ويوســـف بـــن أســـباط وإبراهيم بن أدهم، وسليمان الخواص فنظروا في الورع فلما ضاقت عليهم الأمور فزعوا إلى التقلل. وسمعته يقول سمعت أبـــا القاســـم الدمشقي، يقول :سمعت الشبلي يقول :" الورع أن تتورع عن كل ما سوي الله تعالى وسمعته ". يقول أخبرنا أبو جعفر الـــرازي ،قـــال : حدثنا العباس بن حمزة، قال :حدثنا أحمد بن أبي الحـــواري ،قـــال : حدثنا إسحاق ابن خلف قال :"الورع في المنطق أشد منه في الذهب والفضة، والزهد في الرياسة أشد منه في الـــذهب والفـــضة لأنـــك تبذلهما في طلب الرياسة ". وقال أبو سليمان الدارني :"الـــورع أول الزهد كما أن القناعة طرف من الرضا ". وقال أبو عثمان: "ثـــواب الورع خفة الحساب". وقال يحيي بن معاذ :"الورع الوقوف على حد العلم من غير تأويل " .

وقال بشر بن الحارث :أشد الأعمال ثلاثة :الجود في القلـــة، الورع في الخلوة، وكلمة الحق عند من يخاف منه ويرجى وقيـــل : جاءت أخت بشر الحافي إلى أحمد بن حنبل، وقالت :إنا نعزل على سطوحنا فتمر بنا مشاعل الظاهرية، ويقع الشعاع علينا، أفيجوز لنا اغزل في شعاعها؟ فقال أحمد " من أنت عافاك الله تعالى ؟ فقالت : أخت بشر الحافي، فبكي أحمد وقال :مـــن بيـــنكم يخـــرج الـــورع الصادق لا تغزلي في شعاعها.

ودخل الحسن البصري مكة فرأي غلاما من أولاد على بـــن أبي طالب رضي الله عنه قد أسند ظهره إلى الكعبة يعـــظ النـــاس،

فوقف عليه الحسن وقال :ما ملاك الدين. فقال الورع، قال :فما آفة الدين ؟ فقال :الطمع فتعجب الحسن منه، وقال الحسن :مثقال ذرة من الورع السالم خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة.

وأوحي الله إلى موسي عليه الصلاة والسلام :لم يتقرب إلى المتقربون بمثل الورع والزهد.

وقال أبو هريرة :جلساء الله تعالى غدا أهل الورع والزهد.(5)

٣- الخوف :

{يدعون ربهم خوفا وطمعا} ، قال رسول الله ﷺ: "من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل. ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة" .

يقول الإمام الرازي: إن علم أن الخوف من شرائط الإيمان، وقد فرضه الله على المؤمنين في القرآن فقال {وخافون إن كنتم مؤمنين}(6).

وقد مدح المؤمنين على الخوف فقال: {يخافون ربهم من فوقهم}(7). وللخوف مقامات ومراتب :

مراتب الخوف :

١- فمقام عوام المؤمنين :أن يخافون الله في تعذيبهم بالنار .

---

(5) الراسلة القشيرية صـ ٥٨ ، ٥٩ .

(6) سورة آل عمران: ١٧٥ .

(7) سورة النحل: ٥٠ .

٢- ومقام خواص المؤمنين :الخشية، وهم العلماء كما قال تعالى: {إنما يخشى الله من عباده العلماء}([٨]) .

يخشون أن تكون طاعاتهم مشوبة بالرياء. كما قالت "عائشة" رضي الله عنها: قلت: يا رسول الله ﷺ " الذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة" أهو الرجل يسرق، ويزني، ويشرب الخمر. قال :لا ولكن الرجل يصوم، ويصلي ويتصدق، ويخاف أن لا يقبل منه .

٣- ومقام أخص الخواص. الهيبة :وهم أهل المعرفة من الأنبياء، والأولياء قال الله تعالى {ويحذركم الله نفسه}([٩]) فمن ازداد المعرفة ازداد الهيبة، وإنما يفزعون عن الحجاب والقطيعة.

وهذا النوع من الخوف ينشأ من القرب والمحبة، وضد هذا النوع من الخوف الآمن من المكر. وقال تعالى: {فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون}([١٠]).

والخائف الحقيقي :من لا يخاف إلا الله. فإن قيل :ما قولكم في قوله تعالى: {ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون}([١١]) ويطرح الرازي سوالا وهو

هل يخاف الولي أم لا؟ .

قلنا :أما الخوف الذي يتعلق بزمان مستقبل من مكروه يصيبه من مخلوق أو محبوب يفوته فلا. لأنه ليس للولي ماض ولا مستقبل

([٨]) فاطر: ٢٨ .

([٩]) آل عمران : ٢٨ – ٣٠ .

([١٠]) الأعراف: ٩٩ .

([١١]) يونس: ٨٢ .

وهو ابن وقته، ولأنه مشاهد للحق تعالى فلا يري في الدارين غير الله. وفي نظره {كل شيء هالك إلا وجهه}([12]).

وأما خوفه في ذات الله تعظيما وإجلالاً فنعم، لأنه يزداد بازدياد القرب والمعرفة.

قال الواسطي: الخوف والرجاء زمامان على النفوس لئلا تخرج على رعوناتها ..

وقال :إذا ظهر الحق على السرائر لا يبقي فيها فضلة لرجاء ولا خوف .

قال الأستاذ "أبو القاسم": وهذا فيه إشكال. ومعناه إذا اصطلمت شواهد الحق بالأسرار ملكتها. فلا يبقي منها مساغ لذكر حدثان . فالخوف والرجاء من آثار بقاء الإحساس بأحكام البشرية([13]) .

عن أبي هريرة قال :قال رسول الله ﷺ "لا يدخل النار من بكي من خشية الله تعالى حتى يلج اللبن في الضرع ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في منخري عبد أبدا" .

وقال أبو القاسم الحكيم :الخوف على ضربين رهبة وخشية فصاحب الرهبة يلتجيء إلى الهرب إذا خاف وصاحب الخشية يلتجيء إلى الرب. قال رحمه الله :ورهب وهرب يصح أن يقال هما واحد مثل جذب وحبذ فإذا هرب انجذب في مقتضي هواه كالرهبان الذين اتبعوا أهواءهم فإذا كبحهم لجام العلم وقاموا بحق الشرع فهو

([12]) يونس: ٦٢ .

([13]) منازل السائرين صـ٣٨٠ ، ٣٨٣ .

الخشية. سمعت محمد ابن الحسين يقول سمعت عبد الله بن محمد الرازي يقول سمعت أبا عثمان يقول سمعت أبا حفص يقول : الخوف سراج القلب به يبصر ما فيه من الخير والشر. سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول :الخوف أن لا تعلل نفسك بعسي وسوف. سمعت محمد بن الحسين يقول سمعت أبا القاسم الدمشقي يقول سمعت أبا عمر الدمشقي يقول :الخائف من يخاف من نفسه أكثر مما يخاف من الشيطان، وقال ابن الجلاء :الخائف من تأمنه المخوفات .

وقيل :ليس الخائف الذي يبكي ويمسح عينيه، إنما الخائف من يترك ما يخاف أن يعذب عليه، وقيل للفضيل :ما لنا لا نري خائفاً ؟ فقال لو كنتم خائفين لرأيتم الخائفين إن الخائف لا يراه إلا الخائفون وأن الثكلى هي التي تحب أن تري الثكلى .

وقال يحي بن معاذ :مسكين ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لدخل الجنة.

وقال شاه الكرماني: علامة الخوف الحزن الدائم .

وقال أبو القاسم الحكيم :من خاف من شيء هرب منه ومن خاف من الله عز وجل هرب إليه. وسئل ذوالنون المصري رحمة الله تعالى :متي يتيسر على العبد سبيل الخوف ؟ فقال إذا أنزل نفسه منزلة السقيم يحتمي من كل شيء مخافة طول السقام.

وقال معاذ بن جبل :إن المؤمن لا يطمئن قلبه ولا تسكن روعته حتى يخلف جسر جهنم وراءه. وقال بشر الحافي :الخوف ملك لا يسكن إلا في قلب متق.

وقال أبو عثمان الحيري :عيب الخائف في خوفه السكون إلى خوفه لأنه أمر خفي.

وقال الحسين بن منصور من خاف من شيء سوي الله عــز وجل أو رجا سواه أغلق عليه أبواب كل شيء وسلط عليه المخافــة وحجبة بسبعين حجاباً أيسرها الشك وإن مما أوجب شــدة خــوفهم فكرهم في العواقب وخشية تغير أحوالهم قال الله تعالى {وبــدا لهــم من الله مالم يكونوا يحتسبون} وقال الله تعــالى {قــل هــل ننبــئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحــسبون أنهم يحسنون صنعا} فكم من مغبوط في أحواله انعكست عليه الحال ومني بمفارقة قبيح الأفعال فبدل بالأنس وحشة وبالحضور غيبة.

وقال بعضهم :ما رأيت رجلاً أعظم رجاء لهــذه الأمــة، ولا أشد خوفا على نفسه من ابن سيرين. وقيل :مرض ســفيان الثــوري فعرض دليله على الطبيب، فقال :هذا رجل قطع الخوف كبده ثم جاء وجس عرقة، ثم قال :ما علمت أن في الحنيفية مثله .

وسئل الشبلي لم تصفر الشمس عند الغروب ؟ فقــال :لأنهــا عزلت عن مكان التمام فاصفرت لخوف المقام، وكــذا المــؤمن إذا قارب خروجه من الدنيا أصفر لونه لأنه يخاف المقام، فإذا طلعــت الشمس طلعت مضيئة، كذلك المؤمن إذا بعــث مــن قبــره خــرج ووجهه يشرق .

ويحيى عن أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى أنه قال :ســألت ربي عز وجل أن يفتح على بابا من الخوف ففتح فخفت على عقلي. فقلت: يا رب، أعطني على قدر ما أطيق فكن ذلك عني.

٤- المراقبة :

قال الله تعالى: {وكان الله على كل شيء رقيباً}([١٤]).

وقال رسول الله ﷺ: "الإحسان :أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك" .

يعرف الرازي المراقبة بأنها: محافظة الأسرار عن الاستتار فكما، أن الله كان على كل شيء رقيبا، ينبغي أن يكون العبد على كل شيء من الأشياء ظاهره وباطنه، رقيباً. لئلا يجري عليه سوي المأمور به. ويعلم أن الله رقيبه على ما يفعله ويتمناه، فيكون رقيبا على بدنه. يسايس الطريقة ولزوم المجاهدات، وترك الشهوات. رقيبا على قلبه يسايس المحبة عن ملاحظة الأغيار، ولزوم الأذكار. رقيبا على يسره يسايس الأنوار عن الأستار في كشف الأسرار. رقيبا على روحه بطوالع شموس الشواهد عن الالتفات إلى الدارين في بذل الوجود لنيل المقصود. رقيبا على سره الخفي بسلطان الهوية، وسطوات الألوهية عن وصمة أنانية الإنسانية في إفناء الصفات بالصفات. والذات في الذات، وهذا حقيقة قوله تعالى {وكان الله على كل شيء رقيبا} أي رقيبا على كلية أشياء الموجودات ليستعملها لما خلق له. محفوظة عن استعمال غير ما خلق له. فمن تحقق له قبول الحق، فله دوام المراقبة .

والمراقبة من باب المفاعلة، وهو ما يكون بين الأثنين

فالرب يراقب جميع حركات العبد وسكناته ظاهراً وباطنا مراقبة الحفظ والعناية. وألطاف الربوبية .

([١٤]) الأحزاب : ٥٢ .

والعبد. يراقب جميع أوقاته، وحالات. بظاهره وباطنه. رضا ربه، وإرادته، وأحكامه ،وقضاءه، وقدره، وإشاراته وإلهاماته، وارداته، وطوالعه، وشواهده وتحلي صفاته وذاته، مراقبة التقوى، والوفاء، والحياء، والشوق، وأصناف العبودية كما أنشدوا :

كان رقيبا منك يرعي خواطري وآخر يرعي ناظري ولساني

فما رمقت عيناي بعدك منظراً يسؤك آلا قلت قد رمقاني

ولا بدرت من في دونك لفظة بغيرك إلا قلت قد سمعاني

ولا خطرت في السر بعدك خطره لغيرك إلا عرجا بعناني

وإخوان صدق قد سمعت حديثهم فأمسكت عنهم ناظري ولساني

وقيل قوله ﷺ "فإن لم تكن تراه فإنه يراك" إشارة إلى حال المراقبة. لأن المراقبة علم العبد باطلاع الرب، سبحانه وتعالي، عليه. واستدامة هذا العلم مراقبة لربه، عز وجل، وهذا أصل لكل خير. ولا يكاد يصل إلى هذه المراقبة إلا بعد فراغه من المحاسبة([١٥]) .

وسئل ابن عطاء ما أفضل الطاعات فقال مراقبة الحق على دوام الأوقات. وقال إبراهيم الخواص :المراعاة تورث المراقبة،

([١٥]) منارات السائلين ٣٩٠-٣٩١ .

والمراقبة تورث خلوص السر والعلانية لله تعالي. سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي، يقول :سمعت أبا عثمان المغربي يقول :أفضل ما يلزم به الإنسان نفسه في هذه الطريقة المحاسبة و المراقبة وسياسة عمله بالعلم. وسمعته يقول :سمعت عبد الله الرازي، يقول : سمعت أبا عثمان يقول :قال لي أبو حفص :" إذا جلست للناس فكن واعظا لقلبك ولنفسك، ولا يغرنك اجتماعهم عليك فإنهم يراقبون ظاهرك والله تعالى يراقب باطنك([١٦]) .

([١٦]) الرسالة القشيرية صـــ٩٦ .

ثانياً : المقامات الروحية :

وهي التي تتعلق بالروح وهذه المقامات كثيـــرة وســـنكتفي بالمقامات الآتية :

١ - الاستقامة .

قال تعالى {إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا } وقال رسول الله ﷺ: "استقيموا ولن تحصوا". وقال : لا يستقيم إيمان أحدكم حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ، ولا يستقيم لـــسانه حتى تستقيم جوارحه ، ولا تستقيم جوارحه حتى تستقيم أعماله .

ويقرر الإمام الرازي أن الاستقامة من خـــصائص الـــروح يقول الرازي: وأعلم أن الاستقامة من خصائص الـــروح. قـــال الله تعالى: {لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم}([1]). أي الروح الإنساني. والاعوجاج من خاصية النفس. قال الله تعالى: {إن الـــنفس لأمـــارة بالسوء}([2]) .

والقلب خلق متوسطا بينهما بين إصبعي اللطف والقهر قابلا لكلتا الصفتين. فإن أيد الروح بالإيمان . وروح من الله يبقي علـــي استقامته ، ويتنور القلب بنور الإيمان وتستقيم به .

قال تعالي: {كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منـــه}([3]). وقال النبيﷺ : "لا يستقيم إيمان أحدكم حتى يستقيم قلبه" الحديث .

([1]) آية رقم ٤ من سورة (التين) مكية .

([2]) آية رقم ٥٣ من سورة (يوسف) مكية .

([3]) آية رقم ٢٢ من سورة (المجادلة) مدنية .

وإن وكلت النفس إلى اعوجاجها تعدي عوجها إلى القلب فيتصف بصفاتها . أعلم أن الشرع قد نزل لتقويم عوج النفس ، واستقامة جميع الأركان الظاهرة والباطنة علي ما هو المستحق به كما أمر .

قال تعالى: {فاستقم كما أمرت}([٤]) . ليخرج عن ظلمة ما طبع عليه إلى نور ما أمر به. فإن الخلق في ظلمة الطبع، ثم رش عليهم من نور الشرع .

قال تعالى: {الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور}([٥]) .

من أنواع الاستقامة :

- فاستقامة اللسان؛ في تحري الصدق، وترك الكذب، والغيبة، والبهتان والنميمة، والفحش، والرفث، وما لا يعنيه في ملازمة الذكر .

- واستقامة كل عضو من الأعضاء ؛ في استعماله بإتيان ما أمر به ، وانتهائه إلى مأموريتها بالخير ، واطمئنانها إلى ذكر الله ، وعبوديته ، وتبدل صفاتها الذميمة بالأخلاق الحميدة .

- واستقامة القلب ؛ في توجهه إلى الله ، وإعراضه عما سواه ، وتوكله عليه ، وتعرضه لنفحات ألطافه قابلا للفيض الإلهي خلوه عن (الأغيار كشف الأسرار) وشواهد الأنوار .

([٤]) آية رقم ١١٢ من سورة (هود) مكية .

([٥]) آية رقم ٢٥٧ من سورة (البقرة) مدنية .

- واستقامة الروح ؛ في استغراقه في بحر المحبة ، واستلذاذه بمرارة المحبة .

- واستقامة الخفي : في قابليته لتجلي صفات الربوبية ، والتحلي بأخلاق الألوهية فانيا عن أنانية نفسه باقيا بهوية ربه .

- فأما استقامة الطريق . فهي علي ثلاثة أوجه :

١- استقامة الطريق إلى النار : وهي علي إقدام الشهوات . قالﷺ : "حفت النار بالشهوات" .

٢- واستقامة الطريق إلى الجنة : وهي علي إقدام المكاره في نهي النفس عن هواها . قال تعالى {ونهي النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوي}([٦]) .. وقال ﷺ "حفت الجنة بالمكاره" .

٣- واستقامة الطريق إلى الله تعالى : وهي علي إقدام المتابعة ولزوم المطاوعة. قال الله تعالى: {وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض}([٧]) .

أثبتت للنبي ﷺ الهداية إلى هذا الصراط لا هداية الصراط . لأن الهداية إلى الصراط من المكاسب وهداية الصراط من المواهب. قال تعالى: {اهدنا الصراط المستقيم}([٨]). وهذه الهداية: نور يقذفه الله في قلوب من يشاء من عباده . كما قال تعالى: {ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا}([٩]).

([٦]) آية رقم ٤٠ ، ٤١ من سورة (النازعات) مكية .

([٧]) آية رقم (٥٢ ، ٥٣) من سورة (الشوري) مكية .

([٨]) آية رقم ٦ من سورة (الفاتحة) مكية .

([٩]) آية رقم (٥٢) من سورة (الشوري) مكية .

فمن تقرب إلى الله باستقامة المكاسب يتقرب إلى الله باستقامة المواهب . ثم الاستقامة من لوازم كل مقام وحال .وبها الترقي من مقام إلى مقام ، ومن حال إلى حال . فمن لم يكن له استقامة في كل مقام وحال يؤول أمره إلى إضاعة السعي، وأيضا الجهد . ويرجع قهقري .

قال الله تعالى: {ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة}([10]). فمن إمارات استقامة أهل البداية: الثبات علي جادة الشريعة .

ومن إمارات استقامة أهل النهاية : محافظة أحكام الحقيقة بخمود البشرية . وصقالة مرآة القلب بإخراجه عن طبع الطبيعة وتزكية الأوصاف الإنسانية بتحلية الأخلاق الربانية([11]) .

٢ - المحبة :

قال الله تعالى: {فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه}([12]) الآية . وقال رسول الله ﷺ : "من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه" . وقال : "إذا أحب الله العبد قال لجبريل : قد أحببت فلانا فأحبه . فيحبه جبريل ، عليه السلام . ثم ينادي في أهل السماء إن الله قد أحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء . ثم يوضع له القبول في الأرض . وإذا أبغض العبد (قال مالك لا أحسبه إلا قال في البغض مثل ذلك" . وفي "رواية نافع عن أبي

([10]) آية رقم ٩٢ من سورة (النحل) مكية .

([11]) منارات السائرين صـ ٤٤٦ – ٤٥٠ .

([12]) المائدة : ٥٤ .

هريرة عن النبي ﷺ في الحب قال : وإذا أبغض عبدا دعا جبريل فيقول إني أبغض فلانا فأبغضه قال فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء : إن الله يبغض فلانا فأبغضوه قال : فيبغضونه . ثم يوضع له البغضاء في الأرض" . وقال رجل: يا رسول الله ، متى الساعة ؟ قال : وما أعددت لها ؟ فلم يذكر كثيراً إلا أنه يحب الله ورسوله . قال : فأنت مع من أحببت .

وعن النبي ﷺ عن جبريل عن ربه عز وجل في حديث طويل قال : "ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ومن أحببته كنت له سمعا وبصرا" . الحديث .

ويستكمل الإمام الرازي حديثه عن المحبة، وإنها من صفات الله فيقول: واعلم أن المحبة صفة من صفات الله تعالى كما أن الجمال صفة من صفاته . وقال ﷺ "إن الله جميل يحب الجمال" . فكان في الأزل محبا لجماله .

ولما كان من خصوصية الجمال العزة والجلال ، ومن خصوصية المحبة الذلة ، والافتقار . في اجتماعهما تعسر وانكسار فاقتضت الحكمة الأزلية أن يجعل خليفة مستنيبا أمينا لحمل أمانة صفتيه : الجمال ، والمحبة ..

وهو محمد الأمين . ليكون بخلافته ونيابته محبا لجماله وجميلا لمحبته . فإن كل محبة من محبة الله. كما أن كل جميل من جمال الله فيحب الله لمحبته ويحبه الله لجماله .

ولهذا سمي حبيب الله . فهو خليفة الله تشرفا وتكرما به ليحسب جماله بمحبته خلافة عنه . ويحمل لجماله خلافة عنه ليحبه

الله ، والله خليفته إنعاما وإكراما . ليكون قلبه الـــذي بـــه يحبـــه ، وبصره الذي يبصر جماله كما لو فرضنا مرآة مصفاة ينظر فيهـــا صاحب جمال فينعكس فيها صورة الناظر وصفاته . فالصورة التي في المرآة تكون خليفة للناظر والناظر يكون خليفة للصورة . التـــي في المرآة وكل واحد منهما يحب جمـــال نفـــسه وجمـــال صـــاحبه بالأصالة والخلافة عنه . فالناظر يحب جمال نفسه وجمال منظوره بمحبته التي هي صفته بالأصالة ويحب جمال نفسه وجمال منظوره بالمحبة التي هي صفة المنظور خلافة عنه . والمنظور يحب جمال نفسه وجمال ناظره بمحبته التي هي صفته بالأصالة . ويحب جمال نفسه وجمال ناظره بالمحبة التي هي صفة نـــاظره خلافـــة عنـــه فوجدت الناظر والمنظور في الصورة اثنين وفي الحقيقة واحـــدا . فالمحب والمحبوب علي التحقيق واحد .

كما قيل : أنا من أهوى ومن أهوى أنا .

وهذا تحقيق قوله: "إن الله تعالى خلق آدم فتجلي فيه " . فلما رأي النبي ﷺ في مرآة وجوده المصقولة عن طبع الطبع بمصقل لا إله إلا الله تحلي ذات الربوبية وصفاته . فقال : " أنا من الله أي من عكس ذاته وصفاته ".

وقال: "من عرف نفسه فقد عرف ربه" . أي من عرف نفسه بالمرآتية . عرف ربه بأنه المتجلي فيه . ولما كانت من خصوصية المحبة الذلة والافتقار جعلت في طريق الخليفة استقلالا واســـتحقاقا ليفتخر الخليفة بالافتقار . ويقول : الفقر فخري .

ويتعزز المستخلف بعزته وجلاله فيقول : وعزتي وجلالـــي وارتفاع مكاني . فيكون المكونات تبعا لهذا الخليفة كما قال تعـــالى لحبيبه : لولاك لما خلقت الكون ، ويكون آدم ومـــن دونـــه تحـــت لوائه. فمن وجد سعادة الخلافة في حملا لجمـــال والمحبـــة بقولـــه: {يحبهم ويحبونه} إنما وجد بتبعيته . فأما المحبة فإنها مـــن لـــوازم وجود الإنسان لأنها جبلت القلوب علي حب من أحسن إليها .

وأما الجمال الذي هو محبوب الحق تعالى . فإنـــه يحـــصل بمتابعته لقوله تعالى: {قل إن كنتم تحبون الله}([١٣]) أي تحبونه بمحبة جبلية {فاتبعوني} بالتبتل إلى الله . وعدم الالتفات إلـــى مـــا ســـواه. ليتحلى الله في مرآة قلوبكم فتعطون جمالا {يحببكم الله}. وإنما كانت العزة والجلال من خصوصية المستخلف لأنه غني عـــن العـــالمين. وإنما كانت الذلة والافتقار من خصوصية الخليفـــة. لأن العـــالمين مفتقرون إليه كما قال تعالى: {والله الغني وأنتم الفقراء}([١٤]). فكانت محبة الخليفة ذلة وافتقار ومحبة المستخلف عزة وجلالا .

قال تعالى: {من كان يريد العزة فلله العزة جميعا}([١٥]) . أي من كان يريد العزة بغير الله ودينه فلا يجدها فإن العزة لله جميعا . ومن يريد الاعتزاز بالله ودينه فلله العـــزة ولرســـوله وللمـــؤمنين بمطاوعة الله ومتابعة رسوله وموافقة المؤمنين يجدها . فمن طلـــب العزة من الله أعزه الله . ومن طلب من غير الله أذلـــه الله . ولهـــذا

([١٣]) آية رقم ٣١ من سورة (آل عمران) مدنية .

([١٤]) آية رقم ٣٨ من سورة (محمد) مدنية .

([١٥]) آية رقم ١٠ من سورة (فاطر) مكية .

قال: "الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري. فمن نازعني فيها ألقيته في النار" .

أقسام المحبة

ويقسم الإمام الرازي المحبة إلى ثلاثة أقسام/ مبينا ما لكل قسم، يقول الرازي: ثم اعلم أن المحبة علي ثلاثة أقسام : محبة إنسانية . ومحبة إيمانية . ومحبة ربانية .

١- فأما المحبة الإنسانية فما هو مركوز في الجبلة الإنسانية وهو علي نوعين : محبة روحانية ، ومحبة نفسانية .

فالمحبوبات التي هي من نتائج المحبة الروحانية التأله والعلوم العقلية ، وأفعال الخير والأخلاق الحسنة كما يكون للرهابين والبراهمة والفلاسفة وغيرهم يشترك فيها المؤمن والكافر . وكذلك محبوبات المحبة النفسانية وهي ما قال تعالى: {زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير والمقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا}([١٦]).

٢- وأما المحبة الإيمانية : فهي من نتائج نور الإيمان . فمن ازداد من نور الإيمان ازدادت محبته . وقد أخبر الله تعالى عن المحبة الإنسانية والإيمانية بقوله: {ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله}([١٧]) .

وعلامة هذه المحبة استيلاء محبة الموافقة علي القلوب وانزعاج محبة المخالفة عنها واستطابة روح المؤانسة {أولئك

([١٦]) آية رقم ١٤ من سورة (آل عمران) مدنية .

([١٧]) آية رقم ١٦٥ من سورة (البقرة) مدنية .

يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون}([18]) . قد اشتعلت قلـــوبهم بلزوم دوام ذكر المحبوب عن اللذات ، واشتعلت نار المحبة علـــي دواعي الشهوات فانحسمت مواد المخالفـــات وانقطعـــت هـــواجس التبعات كما قيل :

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا محال في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع
في كل يوم يبتديك بنعمة منه وأنت لشكر ذاك مضيع

وقال بعضهم: سمعت رجلا بالساحل في جوف الليل ، وهـــو يبكي ويقول بصوت حزين : قرة عيني وسرور قلبي ، مـــا الـــذي أسقطني من عينك فطوبي لقلوب ملأتها من خـــشيتك ، واســـتولت عليها محبتك فخشيتك مانعة لها من ولوج كل مقصد خوفا . لحلول سخطك ومحبتك قاطعة لها عن سبيل كل شهوة غير ذكرك .

٣- وأما المحبة الربانية : فهـــي التـــي صـــفة الله تعـــالى المتعكسة في مرآة قلوب المحبوبين المحبين. عند قوله تعالى {يحبهم ويحبونه} وعلامة المحبة في الظاهر متابعة الرسول ﷺ في ملازمة الفرائض ومداومة النوافل . كما قال ﷺ يقول الله عز وجل : " لـــن يتقرب إلي المتقربون بمثل ما افترضت عليهم ولا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه..." الحديث .

وعلامتها في الباطن أن لا يؤثر علـــي الله غيـــر الله ، و لا يكون متولي أمره إلا الله . والله غالب علي أمره . والتفـــاوت بـــين القوم في المحبة علي قدر العناية من الله تعالى ، وكثرة الراعية من

([18]) آية رقم ٦١ من سورة (المؤمنون) مكية.

العبد ، وتعاهد المعرفة ، وتصفية اليقين والصدق في الطلب . وعلامة تلك المسارعة والمبادرة والحث علي السير ، وحسن الالتجاء إلى الله تعالى في كل حال([19]) .

٣- **الفقر :**

قال تعالى: {للفقراء الذين احصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض}([20]) . وقال رسول الله ﷺ "الفقراء الصبر هم جلساء الله يوم القيامة" . وقال: "يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام نصف يوم" . والفقر من أشرف مقامات الروح، وذلك لأنه لما خلق كان أول مخلوق ولم يكن معه مخلوق آخر . فكان عبدا مملوكا لا يقدر علي شيء وهو كل علي مولاه .

أقسام الفقر:

ويقسم الإمام الرازي الفقر إلى ثلاثة أقسام ويعرف كل قسم، فهناك فقر العوام، وفقر الخواص، وأخص الخواص، يقول الرازي: "فالفقر على ثلاثة أوجه"

١- فقر العوام : وهو بعدم المال كما ولدته أمه .

٢ - وفقر الخواص : وهو بعدم الآمال والخروج من أحكام الصفات كما كان في عالم الأرواح .

٣- وفقر الأخص : وهو بعدم الوجود كما كان في علم الله قبل إيجاده بالوجود ليكون عبدا مملوكا لا يقدر علي شيء من

([19]) منارات السائرين ٤٦٢ – ٤٦٧ .

([20]) آية رقم ٢٧٣ من سورة (البقرة) مدنية .

الوجود وهو كل علي مولاه بجود الوجود ، ونيل المقصود . وهـذا هو الفقر الذي افتخر به النبي ﷺ بقوله: "الفقر فخري" .

وهو فقر الفقراء الصبر عن أوصاف الوجـود الـذين هـم جلساء الله يوم القيامة .وهو الفقر الذي أشار إليه من قال : الفقير لا يحتاج إلى الله لأنه فقير عن وجوده غني بربه . فالغني بالـشيء لا يحتاج إلى ذلك الشيء . وهذا مقام النبي ﷺ بقوله: {ووجدك عـائلاً فأغني}([٢١]) .

فكان ﷺ فقيرا عن وجوده غنيا بربه . ولم يكن غنيـا عـن ربه. ومثال ذلك أن القمر يحتاج إلى نور الشمس وهو غني بنورها عند محاذاتها ، ولم يكن غنيا عن نورها . ولهذا قالـت المـشايخ . "الاستغناء عن الشيء أتم من الاستغناء بالشيء". وقـول النبـيﷺ: "يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة سنة" . يدل علي أن الفقير الصابر أفضل من الغني الشاكر .

وكذلك قوله ﷺ لرجلين أحدهما فقير وعليه أحلاء . والآخـر غني: هذا خير من ملء الأرض مثل هذا .

وقال : "صاحب الدرهمين أشد حسابا من صاحب الدرهم" .

وقال "الحسن البصري" : "إن مما كتب الله تعـالى لإبـراهيم عليه السلام في الصحف الأولي : إن أحب أحبابي إلى الفقراء الذين يبتغون مرضاتي وأمري ويحفظون وصيتي . ون من كرامتهم علي أن لا أرزقهم ما يشتغلون به عن طاعتي ".

([٢١]) آية رقم ٨ من سورة (الضحي) مكية .

ويروي في حديث آخر يقــول الله عــز وجــل: "عبــادي وأصفيائي: ما زويت عنكم الدنيا لهوانكم علــي. ولكــن أردت أن تتردد أصواتكم إلى وأسمع منكم النداء . فهذه داري فانزلوها وهــذه جواري فتبجحوا" وقال رسو الله ﷺ "رأس الدين ترك الدنيا والقربة من الله عز وجل وحب المساكين والدنو منهم" . وروي عــن "أبــي هريرة" رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ "يقو الله عز وجــل يوم القيامة: أين صفوتي من خلقي؟ فتقول الملائكة: من هم يا ربنا؟ فيقول: فقراء المسلمين القــانعون بطــاعتي . الراضــون بقــدري أدخلوهم الجنة . فيدخلون ، فيــأكلون ويــشربون ، والنــاس فــي الحساب يترددون" .

ودخل رسول الله ﷺ علي رجل فقير فلم ير له شيئا . فقال: " لو قسم نور هذا علي أهل الأرض لوسعهم " . وقال رسول الله ﷺ "ألا أخبركم بملوك أهل الجنة . قالوا : بلي يا رســول الله . قــال : كل ضعيف أغير أشعث ذي طمرين . لو أقسم علي الله لأبره " .

وقال رسول الله ﷺ " الفقر علي المؤمن أحسن مــن العــذار الجيد علي حد الفرس" . وقيل : " لو لم يكن للفقير فــضيله غيــر إرادته سعة للمسلمين ورخص أسعارهم لكفاه ذلك . لأنه يحتاج إلى شرائها والغني سيحتاج إلى بيعها . هــذا لعــوام الفقــراء فكيــف لخواصهم . ولأخص خواصهم ". وقيل : " سئل " محمد بن عبد الله الفرغاني " عن الافتقار إلى الله أتم أم الاستغناء بالله ؟. فقــال : إذا صح الافتقار إلى الله ، صح الاستغناء بالله وإذا صح الاستغناء به .

كمل الغني به . فلا يقال أيهما أتم . الافتقـار أم الغنـي . لأنهما حالتان لا تتم إحداهما إلا بالأخري ".

وقيل : أوحي الله تعالى إلى " موسـى " عليـه السـلام : إذا رأيت الفقراء فسائلهم كما تسائل الأغنياء . فإن لم تفعل فاجعل كـل شيء عملته تحت التراب .

رأي بن تيمية فيمن يقول إن الله ينظر إلى الفقراء

وأما قول م قال: إن الله ينظر إلى الفقراء في ثلاثة مواطن: عند الأكل، والمناصفة، والسماع، فهذا القول روى نحوه عن بعض الشيوخ قال: إن الله ينظر إليهم عند الأكل؛ فإنهم يـأكلون بإيثـار، وعند المجاراة في العلم؛ لأنهم يقصدون المناصحة وعنـد السـماع لأنهم يسمعون لله، أو كلاماً يشبه هذا: أن من عمل عملاً يحبـه الله ورسوله وهو ما كان الله بأذن الله فإن الله يحبه وينظر إليه فيه نظر محبة، والعمل الصالح هو الخالص الصواب، فالخالص ما كـان لله، والصواب ما كان بأمر الله، ولا ريب أن كل واحد مـن المواكلـة والمخاطبة والاستماع منها ما يحبه الله، ومنهـا مـا لا يحبـه الله، ومنها ما يشمل على خير وشر، وحق وباطل، ومـصلحة ومفـسدة وحكم كل واحد بحسبه([٢٢]) .

٤- الصحبة :

قال الله تبارك وتعالى: {ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا}([٢٣]).

([٢٢]) فتاوى ابن تيمية ٧٤/٢٧ .

([٢٣]) آية رقم ٤٠ من سورة (التوبة) مدنية .

وقال رسول الله ﷺ: "واشوقاه إلى لقــاء إخــواني . قــالوا : أولسنا بإخوانك ؟ قال : بل أنتم أصحابي ، وإنما إخواني الذين لــم يأتوا بعد ".

وقال : " الله في أصحابي الله الله في أصحابي لا تتخــذوهم غرضا بعدي فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغــضهم فببغــضي أبغضهم ومن أذاهم أذاني ومن آذاني فقــد أذي الله ومــن آذي الله فيوشك أن يأخذه " .

قال رسول الله ﷺ "لا تسبوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحــدهم ، ولا نــصيفه ". ولهذا الشرف وجد الروح اختصاص رتبة اضافته إلــى الحــضرة بقوله : (من روحي) .

وإن كمالية كل شيء ونقصانه مودعة في الــصحبة مثالــه كالنواة . كماليتها مودعة في صحبة التــراب ، وتربيتهــا بالمــاء والهواء والشمس ، ودهقنة الدهقان ، ونقصانها أيضا مودعــة فــي صحبة التراب عند اعوان الماء ، أو أحد أسباب التربيــة . فكــذلك كمالية الروح ونقصانه مودعة في صحبة القالب . فإن وجد التربية بماء الإيمان ولواقح أعمال الشريعة ، وطلوع شمس العناية ودهقنة النبي أو الشيخ تكاملت شجرة العبودية ، وأثمرت ثمرات المعرفــة والتوحيد.

كما قال تعالى: {تؤتي أكلها كل حين بإذن ربهــا}([٢٤]) . وإن عدم منه بعض أسباب التربية تنــاقض الــروح والحــس بــصحبة

([٢٤]) آية رقم ٢٥ من سورة (إبراهيم) مكية .

القالب. نقصان النواة بصحبة التراب عند أعــوان بعــض أســباب التربية .

كما قال تعالى: {والعصر إن الإنسان لفي خــسر إلا الــذين آمنوا وعملوا الصالحات}([٢٥]).

فمن أعظم أسباب التربية صحبة شــيخ كامــل ، واصــل ، صاحب الولاية ، عالم بأركان الشريعة ، واقف علي آداب الطريقة، محق بدقائق الحقيقة ، مكاشف لأسرار السلوك ، محبــب الله إلــى عباده ، ومحبب عباد الله إلى الله . داع إلى الله .

قال رسول الله ﷺ حاكيا عن ربه : " إذا كان الغالــب علــي عبدي الاشتغال بي ، جعلت نعمته ولذته في ذكري . فــإذا جعلــت نعمته ولذته في ذكر عشقني وعشقته ، ورفعت الحجاب فيما بينــي وبينه لا يسهو إذا سهي الناس . أولئك كلامهم كلام الأنبياء ، أولئك الأبطال حقا ، أولئك الذين إذا أردت بأهل الأرض عقوبة أو عــذاباً ذكرتهم فصرفته بهم عنهم " .

ويحذر الإمام الرازي الناس من اتباع شيخ يفتخــر بالآبــاء والأجداد، فهو بعيد عن الصدق ويقدم جماعات يجــب أن تحتــرس منهم فهم يقدرون إلى طريق الشر والزندقــة يقــول الــرازي: ولا يصحب أكثر مدعي أهل العصر المشيخة الذين ينسبون إلى البيوتات ويتشيخون بالآباء والأجداد ، وهم بمعــزل عــن رتبــة المريــدين الصادقين الطالبين من أرباب الرياضات وأصحاب السلوك المقتدين بالمشايخ والرجال البالغين فإنهم قطاع الطريق علي الصادقين مــن

([٢٥]) آية رقم (١،٢،٣) من سورة (العصر) مكية .

الطلبة ،ولا يصحب أيضا جماعــة يــسمون أنفــسهم الملامتيــة ، والقليدرية ، والحيدرية ، والجريرية .

فإن الغالب علي أكثرهم الإباحة والزندقة إلا من شاء الله به خيرا ، والضابط في تمييز أهل الخير منهم ومــن غيــرهم إقامــة الشريعة علي قانون المتابعة والتأدب بآداب الطريقة علي وفق سير المشايخ ، ومن ادعي أنه خلص مع الله تعالى ضميره ، ونال رتبــة في الحقيقة أنه تنزه عن الشريعة وأن الارتسام بمراســم الــشريعة رتبة العوام المتحصرين في مضيق الاقتداء تقليداً . فاعلم أنه مــن أهل الإلحاد والزندقة والفلسفة والإباحة .فاحــذرهم إن صــحبتهم ، وظلمة أنفاسهم سم قاتل لقلوب المبتدئين من المريدين ، ولــم يعلــم الجاهل المغرور أن الشريعة قشر لب الحقيقة ، واللب لا ينعقــد ولا يتربى إلا بالاستمداد عن القشر . وكل حقيقة ردتها الشريعة زندقة. وإن الشريعة من أهل الحقيقة تقيــد بحقــوق العبوديــة ، وحقيقــة العبودية . وصار مطالبا بأمور وزيادات لا يطالب بها من لم يصل إلى ذلك المقام ، لأنه يخلع عن عنقه ربقة التكليف، ويخامر باطنــه الزيغ والتحريف .

روي عن "أبي محمد الجريري" يقول : سمعت الجنيد يقــول لرجل ذكر المعرفة فقال الرجل : أهل المعرفة بالله يــصلون إلــى ترك الحركات من باب البر والتقوى إلى الله تعالى فقال "الجنيد": إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال وهذه عندي عظيمة . والــذي يسرق ويزني أحسن حالاً من الذي يقول هذا .

وإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عـن الله تعـالى ، وإليـه يرجعون فيها ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البـر ذرة إلا أن يحال بي دونها . وإنه لا كد في معرفتي ولو قوي الحال .

أقسام أهل الولاية :

ومن أوصاف المشيخة أن يكون من أهل الولاية ، وإن لـم يستأهل للاقتداء كل ولي . لأن أهل الولاية علي ثلاثة أقسام :

١- ولي مجذوب غير متدارك بالسلوك فـالولي المجـذوب الذي غير متدارك بالسلوك لا يصلح للمشيخة ؛ لأنه غيـر واقـف علي المقامات والآفات ، والقواطع وطريق إصلاح الأحـوال فـلا يصلح للاقتداء ، وإن صلح للاهتداء .

٢- فأما الولي السالك المتدارك بالجذبة . والولي المجـذوب المتدارك بالسلوك فهما يستأهلان للمشيخة والاقتـداء . وذلـك لأن الطريق إلى الله بنوعين اثنين :

أحدهما : طريق من العبد إلى الله ، فهو ضلالة في ضلالة .

وثانيهما: طريق من الله إلى العبد فهو هداية في هداية . وهو طريق المجذوب .

فإن بسطوة الجذبة تنحرق الحجب ويحترق في لحظة مـا لا يندفع ولا يرتفع للسالك في سنين كثيرة بالمجاهـدة والمكابـدة ثـم تحتجب الجذبة ، ويتدارك العبد بالسلوك مؤيـدا بتأييـد الجذبـة . فيستأنف السير بالمعاملة والشوق والمحبة . ثم يتبدلالسير بالطير . ثم بهبوب الرياح المرسلة .

ثم بلمعان البرق الخاطف إلى أن يبلغ أعلي اعليين الروحانية وينطقع الطريق ويتعذر العبور ثم يتدارك السالك بالجذبة وتتخلص الجذبة عن الاحتجاب وتخطفه عنه تفنيه وتوصله إلى الحق ، وتبقيه به . فهذه حقيقة قوله ﷺ "جذبة من جذبات الحق توازي عمل الثقلين".

فإن عمل الثقلين لا يوصل السالك إلى الحق كما توصله الجذبة . وللمشيخة إمارات ودلالات ، وأوصاف وأخلاق يطول شرحها ليستحق بها الاقتداء ، ويصح له الاهتداء ، وكذلك للمريد الصادق الطالب المستصحب أمارات وأحوال يستحق بها الصحبة فنحن نقتصر في شرحها علي ما قال الشيخ " أبو سعيد ابن أبي الخير" رحمة الله عليه . حين سئل عن الشيخ المحقق والمريد المصدق فقال : " أدني أحوال الشيخ أن يكون موصوفا بعشر خصال حتي تسلم له المشيخة : أولهما : أن يصير مراداً حتي يمكنه أن يربي المريد . ثانيها : أن يكون سالكا للطريق حتي يقدر علي الدلالة لغيره([٢٦]) .

([٢٦]) منارات السائرين ٥٠٤ – ٥٠٩ .

مراجع البحث

١- إحياء علوم الدين – أبي حامد الغزالي – ط الأولى ١٩٣٣ .

٢- التنوير في إسقاط التدبير تأليف ابن عطـــاء الله الــسكندري – تحقيق موسى الموشي ، وعبد الله العرابي .

٣- الرسالة القشيرية – تأليف الإمام عبد الكـــريم القســشيري – ط الحلبي ١٩٥٩م .

٤- عقيدتنا ، تأليف الدكتور/ محمد ربيــع الجــوهري – الطبعــة الرابعة ١٩٩٧م

٥- كشف المحجوب للهجويري تحقيق وترجمة د/ إسعاد قنــديل – ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٩٤م .

٦- لسان العرب لابن منظور ط دار المعارف .

٧- منارات السائرين ومقامات الطائرين تأليف أبو بكر عبد الله بن شاهور الرازي تحقيق سعيد عب الفتاح ط الهيئــة المــصرية العامة للكتاب ١٩٩٩م .

٨- موقف الإسلام تأليف الدكتور/ يوســف القرضــاوي ، الناشــر مكتبة وهبة ط الأولى ١٩٩٤ .

٩- النهاية في غريب الحديث والأثر – ط الحلبي .

١٠- بصائر ذوي التمييز – تأليف مجد الدين محمد الفيرز آبادي، تحقيق محمد على النجــار – ط المجلــس الأعلــى للــشؤون الإسلامية ١٣٨٥هـ .

١١- التعريفات للجرجاني ، تحقيق الدكتور/ عب الرحمن عميرة - ط بيروت ، عالم الكتب .
١٢- شرح عقائد النسفية ، لسعد الدين التفتازاني ط الحلبي .
١٣- مدارج السالكين لابن القيم .
١٤- الذريعة إلى أحكام الشريعة ، تأليف الراغب الأصفهاني\، تحقيق الدكتور/ أبو اليزيد العجمي ، نشر دار الصحوة بالقاهرة.
١٥- فتاوى ابن تيمية – دار الوفاء – القاهرة – ١٩٧٩ م .